


روايات مصرية للجيب

زهور

١١

العصفور الجريح

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العصفور الجريح

أنصتوا صوت يجلجل بيننا
أغنـاء أم أضـغاث ريح
انظروا طـير يحـلق بيننا
يطوى الجناح ويستريح
ويلكم كيف قنعتم أن غدا
صـوت البلابل كالفحيح
ليس شدواً تسمعون وإنمـا
أنات عصـفور جـريح
(نبيل)

١ ـ فاتن ..

لست أدرى كيف أبدأ قصتى هذه ..

أأبدؤها منذ تلك اللحظة التى وقعت فيها فى حب (فاتن) ؟...

أم أبدؤها لحظة أن فقـدتها ؟..

ترى أأصفها أولا ، أم أصف نفسى ؟..

خضم من الأحـداث والذكريات يعصف بى ، وأنا أجلس الآن فى شرفة منزلى ، المطل على شاطئ البحر ، فى مدينة الإسكندرية ، أمسك قلمى وأوراق ، وأتأمل غروب الشمس ، وأحاول العثور على نقطة البداية ..

ولـكن مهلاً ..

لِمَ لا أعود إلى حيث بدأت القصة بالفعل ؟..

إلى تلك الليلة العاصفة ، من ليالى الشتاء القارصة البرودة ..

إلى خمس سنوات مضت ..

إلى أول لقاء لى بـ (فاتن) ..

يا لها من ذكرى ! !

أى تناقض تبعثه فى نفسى هذه الذكريات ؟..

أى مزيج هذا من النشوة ، والسعادة ، والألم ، والعذاب ؟..

هل أحببتها حقًّا ؟..

أكان لها وجود حقيقى فى حياتى ، أم أنها حلم عجيب عاشه خيالى ، طوال خمسة أعوام ؟..

وهل أحبتنى هى ؟..

يبدو أنه لا مناص من العودة إلى البداية ..

إلى شقتى الصغيرة القديمة فى الإسكندرية .. تلك الشقة التى كنت أعيش فيها بعد تخرجى فى كلية الطب جامعة الإسكندرية ، فأنا لست من سكان عروس البحر المتوسط ، ولكننى نزحت إليها بعد أن أرسلنى مجموع درجاتى فى الثانوية العامة إلى هناك ، واستأجر لى والدى هذه الشقة المفروشة الصغيرة ، والتى استمررْتُ أقيم فيها بعد تخرجى ، واستمر والدى يسدِّد إيجارها ،

الذى يفوق راتبى ، انتظاراً لانتقالى إلى بلدتى الأصلية ، بعد انتهاء سنة الامتياز الإجبارية ، التى يحصل خريج الطب بعدها على ترخيص مزاولة المهنة ..

عشت فى هذه الشقة الصغيرة سبع سنوات كاملة ، دون أن أعرف شيئاً عن سكان العمارة الكبيرة .. ربما لأننى كنت منطوياً بطبعى .. منكبًّا على الدراسة والعلم ، أقضى معظم ساعات اليوم فى الكلية ومعاملها ، أو فى المستشفى الجامعى ، أو خلف مكتبى أستذكر محاضراتى ودروسى ، أو أشاهد برامج التليفزيون فى السهرة ..

قبل أن أنتقل إلى أحداث القصة ، أعتقد أنه من الأفضل أن نتعارف أولا ..

أنا شاب ضئيل الجسد ، عادى الملامح ، نحيل ، كثيف الحاجبين ، حليق الوجه ، أرتدى منظاراً طبيًّا صغيراً ، وفوق رأسى شعر أسود مجعَّد قصير ، وعلى الرغم من خلو ملامحى من الوسامة تماماً ، إلا أن الجميع يقولون إننى أمنحهم شعوراً بالارتياح والثقة ، أما عن اسمى فهو (فوزى) .. الألقاب هنا لا تهم .. يكفيكم

(فوزى) فحسب ، وهو اسم عادىّ كما ترون ، عادىّ ككل ما يتعلق بى ..

كنت كما وصفت لكم نفسى ، أجلس منكبًا على مطالعة بعض النشرات العلاجية الجديدة ، عندما سمعت فجأة طرقاً عنيفاً على باب شقتى ..

أصارحكم القول أننى ارتجفت ، وتوجّست خيفة ، فطوال سكنى فى الشقة ، لم يحدث أن طرق بابى سوى زائر ، أو قريب ، ولم يحدث هذا قط على هذا النحو العنيف ، ولكننى أسرعت أفتح الباب ، ووقفت لحظة أتطلع فى دهشة إلى وجه السيدة ، التى اندفعتْ إلى شقتى بادية الذعر والقلق ، وصاحت وهى تلوّح بذراعيها فى لهفة ولوعة ..

ــ أنقذنا يا دكتور .. ابنتى الوحيدة سقطت فى غيبوبة .

لم أكن أعرف تلك السيدة ، التى تبدو فى منتصف الأربعينات ، ولكننى أسرعت ألتقط حقيبتى الطبية ، وأهرع خلفها إلى الطابق العلوى ، وقد تملكنى الانفعال

كثيراً ، شأن أى طبيب امتياز ، يجد نفسه فجأة مطلوباً لنجدة حالة عاجلة ، ومطالباً بتطبيق كل ما درسه فى سنوات الدراسة ، وغير مصرح له بالخطأ ..

عبرت خلف السيدة باب شقتها ، وأسرعت إلى الحجرة الصغيرة ، التى اقتحمتها فى لهفة ، وهناك وقعت عيناى على (فاتن) لأول مرة ..

هناك فوق الفراش الصغير ، كانت ترقد أجمل وأرقّ فتاة ، وقعت عليها عيناى ..

كانت (فاتن) ضئيلة الجسد ، رقيقته ، تذوب ملامحها رقة وعذوبة ..

وجهها الصغير أقرب إلى ملامح الطفولة ، يضم فى حنان شفتيها الصغيرتين ، وأنفها المستقيم الرقيق ، وعينيها المسبلتين ، برموشهما السوداء الطويلة ، ويحيط بكل هذا شعر أسود ناعم كالحرير ، ينسدل ككليل طويل على كتفيها ، فيصنع بتناقضه مع بشرتها البيضاء سحراً يجذب العين ، ويخلب اللب ..

وقفت لحظة أحدّق فى ذلك الملاك مبهوراً ، مسلوباً ،

حتى انتبهت على صوت أمها تهتف فى لوعة ، ودموع الحزن تبلل وجهها :

ـ ماذا أصابها يا دكتور ؟

أسرعت أفتح حقيبتى الطبيـة ، وأقـوم بواجبى كطبيب ، وقبل أن أنتهى من الكشف عليها ، سمعتها تتأوه بصوت رقيق ، زغردت له أذناى فرحاً ونشوة ، فرفعت عينىّ إلى عينيها ، ورأيتها تفتحهما فى هـدوء ، وتتطلع إلى وجهى فى حيرة واستكانة ..

لم تكد عيناى تلتقيان بعينيها ، حتى خفق قلبى فى قوة ، وارتجف بين ضلوعى ..

كانت عيناها أجمل بحر وقعت عليه عيناى ..

زرقاء ، شفافة ، ناعمة ، حانية ، واسعة ، رقيقة ، جميلة ، خلابة ..

يا إلهى !!.. كم يختلج قلبى ، وأنا أعود إلى ذكرى هذه اللحظة ؟!..

لقد سألتنى فى هدوء واستسلام ، انهار لها حصن مقاومتى :

ـ ماذا حدث لى ؟!.. من أنت ؟

حاولت أن أجيب سؤاليها ، ولكن فمى ظلّ مطبقاً ، وعجز لسانى عن الحركة ..

كنت أسبح فى بحر عينيها فى لذة ، وسعادة ، ولهفة ..

لم تنفرج شفتاى عن كلمة واحـدة ، فى حين أسرعت أمهـا تحتضنها فى لهفة ، وتهتف من خلال دموعها الغزيرة :

ـ حمداً لله على سلامتك يا (فاتن) .. ليتنى أنا التى سقطت لا أنت .

كانت أول مرة أعرف فيها اسمها ، وشعرت أنه يناسبها تمـاماً ، فكل شىء فيها فاتن جذّاب ..

قـدّرت عمـرها فى تلك اللحظة بسبعة عشر عـاماً ، أو ما يزيد ببضعة أشهر ، وبدت لى وهى تستسلم لذراعى أمها كعصفور صغير رقيق ، استكان لعشه ، وارتاح لجناحىْ أمه ..

قاومت ذلك الشعور الجارف ، الذى يملأ كيانى ، وقلت فى حنان :

– يبدو أنك أرهقت نفسك كثيراً و ...

لم أستطع إكمال عبارتى ، حينما التفتت إلىّ ، وبدا جزع مفاجئ فى عينى أمها ، فازدردت لعابى فى صعوبة ، وعدت أتابع :

– إنك تحتاجين إلى بعض الراحة فى الفراش و...

مرة أخرى ، لم أستطع إتمام عبارتى ، فقد قفز إلى العينين الجميلتين حزن عجيب ، وعادت الدموع تتألق فى عينى الأم فى لوعة ..

لم أفهم ما يعنيه ذلك ..

لم أفهمه أبداً ..

ولكننى لم أتابع حديثى ..

نهضت فى بطء ، وأخذت ألملم أدواتى ، وأعيدها إلى حقيبتى ، ثم قلت دون أن ألتفت إليهما :

– سأعود لرؤيتها فى الصباح الباكر بإذن الله .

وأسرعت أغادر الحجرة ، وهرعت والدتها خلفى ، وقالت فيما يشبه الاعتذار :

– معذرة يا دكتور .. لقد أقلقناك كثيراً ، ولكن ..

قاطعتها بسرعة :

– لا تعتذرى يا سيدتى .. نحن جيران ، وللجار حقّ على جاره ، ثم إنها مهنتى .

نظرت إلىّ فى امتنان ، وقالت :

– كيف أردّ لك الجميل ؟

ابتسمت وأنا أقول فى تلعثم :

– بأن تتوقفى عن الحديث بهذا الأسلوب .

ثم أسرعت أغادر المنزل ، وقلبى يخفق فى لهفة وفرح ..

لم أكد أدخل منزلى ، حتى أغلقت الباب خلفى فى إحكام ، وكأننى أرفض أن يقتحم أحد خلوتى ، ويعكر صفو تلك اللحظات السعيدة ، التى أحياها لأول مرة ..

استلقيت على فراشى بملابسى ، وأغلقت عينىّ ، وأنا أستعيد فى ذهنى ملامح (فاتن) ، وملاحتها ، ورقتها ..

أستعيد ذكرى عينيها ، اللتين لم أر أجمل منهما فى حياتى كلها ..

جذبتنى الأفكار ، وسلبتنى إحساسى بالوقت ، وأنا هائم فى ذكرى عينيها ، حتى فوجئت بأذان الفجر يتردّد فى المنطقة ، فنهضت من فراشى ، وقد أبى النوم أن يقتحم خلوتى ، وأخذت أتأمل شروق الشمس ، وأنتظر مطلع النهار فى لهفة ، حتى أعود لرؤية (فاتن) ، واعترفت لنفسى وأنا أرقب قرص الشمس الأحمر ، أننى قد أحببت ..

بل غرقت حتى أذنىّ فى حب أرقّ عصفور فى الوجود ..

فى حب (فاتن) ..

* * *



٢ ـ المفاجأة ..

أشرق الصباح ، وأشرقت معه تساؤلات ومخاوف ، أثارت الهواجس فى كوامن نفسى ..

كيف يمكننى أن أغرق هكذا ، فى حب فتاة رأيتها مرة واحدة ، وللحظات معدودة ، ولم أتبادل معها سوى كلمات تعدّ على أصابع اليد الواحدة ؟..

هل أسرنى جمالها فحسب ؟..

هل بهرتنى رقتها ، وألهبنى ضعفها ؟..

عدت أسترجع ملامحها الجميلة الرقيقة ، وقد تراجع خفقان قلبى ، وعاد عقلى يسيطر على أفكارى ومشاعرى ، ويحاول دراسة الأمر ، كما أفعل مع أى حالة طبية تواجهنى ..

بدأت بسؤال محدّد .. ما هو الحب ؟..

أهو انفعال نفسى ، وتوافق عاطفى بين شخصين من جنس مختلف ، كما يحدث من تجاذب بين الأقطاب المختلفة فى المغناطيس ؟..

أهو تفاعل كيميائى ، ينشأ فجأة فى الجسد، ويؤثر فى القلب ؟..

أم هو عامل مجهول ، تتضافر فيه كل خصائص الجسم والعقل والروح ؟..

فكرت طويلا ، ولكننى عجزت عن تحديد ماهية الحب ، فأسرعت إلى كتب التحاليل النفسية ، محاولا البحث عبثاً عن جواب ، ثم لم ألبث أن نحيتها جانباً ، وكذلك فعلت بالسؤال الأول ، وعدت أدرس حالتى من نقطة مختلفة ..

اعترفت فى البداية بوجود شىء ما يربطنى بـ (فاتن) ، وأخذت أبحث عن طبيعة هذا الشىء ..

لقد شعرت بهذه الرابطة عندما رأيتها لأول وهلة..

شعرت أنها ضعيفة ، رقيقة ، جميلة ، تحتاج إلى الحماية والرعاية ..

ربما جذبنى إليها ضعفها ، وربما كانت طبيعتى المنطوية هى التى دفعتنى للارتباط بأول فتاة ، تحتاج حقًا إلى معاونتى ..

ربما لم يكن هذا الذى أحسه نحوها حبًا ، ولكنه عاطفة قوية على أية حال ...

ألقيت كل حيرتى جانباً ، مع دقات الساعة التاسعة صباحاً ، وأسرعت أرتدى ملابسى ، وقد تنبهت إلى تأخرى عن موعد عملى ، خاصة وأننى أحب المرور على (فاتن) قبل ذهابى إلى المستشفى ..

حرصت على أناقتى كثيراً هذه المرة ، وترددت طويلا فى اختيار رباط عنق مناسب ، وحلة متناسقة ، ثم حملت حقيبتى الطبية، وصعدت إلى منزل (فاتن) ..

تصاعد انفعالى مع كل خطوة أخطوها ، ومع كل درجة سلم أعتليها ، حتى وصل إلى ذروته ، وأنا أدق باب شقتها ، وكدت أعود أدراجى فى عصبية لا مبرر لها ، لولا أن فتحت والدتها الباب ، وملأت الابتسامة وجهها الصبوح ، وهى تهتف فى ترحاب :

ـ مرحباً يا دكتور .. تفضل .. إن (فاتن) تسأل عنك منذ أن استيقظت هذا الصباح .

خفق قلبى فى شدة ، مع ذكر اسم (فاتن)،حتى

أننى بذلت مجهوداً خارقاً لأحافظ على نبرات صوتى ، وأنا أقول :

– كيف حالها ؟

قالت والدتها فى طيبة وامتنان ، وهى تقودنى إلى حجرة (فاتن) :

– فى خير حال .. لن ننسى جميلك هذا .

ثم أردفت فى اهتمام أمومى ، بعث فى نفسى كثيراً من الارتياح والحنان إلى أسرتى :

– هل تناولت إفطارك ؟

تذكرت فى هذه اللحظة أننى لم أتناول حتى عشاء أمس ، ولكن الخجل منعنى من ذكر ذلك ، فغمغمت فى شكر :

– نعم يا أماه .. شكراً لسؤالك .

لمحت بريق الحنان فى عينيها ، حينما خاطبتها بلقب أمى ، وبدت السعادة فى نبرات صوتها وهى تقول فى حماس :

– سأعد لك كوباً من الشاى إذن .

ثم طرقت باب حجرة (فاتن) ، وهى تقول :

– الدكتور (فوزى) حضر لرؤيتك يا (فاتن) .

ودفعت باب الحجرة ، ثم تركتنى ، وأسرعت تعد الشاى ، وترددت أنا لحظة ، ثم خطوت إلى حجرة (فاتن) ، وأنا أرتجف من فرط الانفعال ..

ما زلت أذكر – بعد مرور خمس سنوات كاملة – تلك الابتسامة الرقيقة ، التى استقبلتنى بها (فاتن) ، وهى ترقد فى فراشها ، تماماً كما تركتها أمس ، ولا صوتها الرقيق وهى تقول فى هدوء :

– صباح الخير يا دكتور (فوزى).. كيف أشكرك على ما تجشمته من أجلى أمس ؟

وقفت أتأمل ملامحها الرقيقة فى صمت ، دون أن أجد جواباً ، ثم انتبهت من استغراقى ، فأسرعت أقول فى تلعثم :

– إننى لم أتجشم شيئاً فى الواقع ، فقد استعدت وعيك قبل حتى أن انتهى من الكشف عليك .

أشارت إلى مقعد قريب من فراشها ، وكأنها تدعونى للجلوس ، وهى تقول فى رقة متناهية :

ـ ولكنك هرعت إلى هنا ، وهذا يكفى ..

جلست وأنا أغمغم :

ـ هذا واجبى ..

ابتسمت فى رقة ، وقالت وهى تتأملنى بكل عينيها الساحرتين :

ـ فى عصرنا هذا حتى أداء الواجب يستحق الشكر .

شعرت بعاطفة عاصفة تجتاحنى ، وخشيت أن تشف ملامحى عما يعتمل فى نفسى ، فأشحت بوجهى عنها ، متظاهراً بتأمل حجرتها ..

كانت حجرة صغيرة أنيقة .. تنم عن ذوق رفيع ، ولمسة جمال ورقة ، وتوقفت عيناى عند قفص صغير بالقرب من النافذة ، استقر داخله عصفور رائع الألوان ، يقف صامتاً ، يتأمل الجو خارج النافذة ، كما لو كان يتحسر على سجنه الانفرادى ، فسألتها وأنا أحاول جذب أطراف الحديث معها :

ـ عجباً !! إننى لم أنتبه إلى وجود هذا العصفور أمس ، هل تنقلينه إلى حجرتك فى الصباح ؟

أجابتنى وهى تبتسم :

ـ كلاً .. إنه يلازم حجرتى طوال الوقت .

قلت وأنا أتشاغل بمراقبة العصفور :

ـ لماذا لا يتحرك أو يغرّد ؟

تسللت إلى صوتها نبرة حزينة ، على الرغم من ابتسامتها ، وهى تقول :

ـ لقد توقف عن التغريد منذ فترة طويلة .

التفتُّ إليها ، أسألها فى دهشة :

ـ هل تتوقف الطيور عن التغريد ؟

أومأت برأسها إيجاباً ، وقالت وهى تتأمل العصفور الصامت ، فيما خيل إلىّ أنه شفقة بالغة :

ـ لقد كان يشدو بغناء رائع كل صباح ، وكانت أنثاه تشاركه الشدو ، حتى عثرنا عليها ذات يوم وقد فاضت روحها ، ومن يومها لم يغرّد هو أبداً .

ساد الصمت بيننا لحظة ، وكأننا نؤدى الحداد على روح أنثى العصفور ، ثم غمغمت محاولاً تحطيم روح الحزن التى خيمت علينا :

– ربما كان سجنه هو ما يحزنه .

– لقد كان سجيناً منذ مولده .

– كانت أنثاه تهوّن من آلام سجنه ، فلما فقدها ازداد إحساسه به .

– وكيف يعلم أنه فى سجن ، ما دام لم يغادره أبداً ، ولم يذق طعم الحرية مطلقاً ؟

– إنه يرى الطيور والعصافير الأخرى ، من خلال النافذة ، تحلق فى حرية كبيرة ، وترفرف بأجنحتها فى سعادة وانطلاق ، فى حين يختنق هو داخل سجن ضيق ، لا يسمح لجناحيه بالخفقان .

– هل تظن أنه يغادر قفصه ، لو أننا منحناه فرصة الاختيار ؟

– بالطبع .. قد يتردّد لحظة فى البداية، ولكنه لن

يلبث أن ينطلق خارج سجنه ، مرفرفاً بجناحيه فى سعادة .

– لقد اعتاد طيلة عمره على وجود غذائه جاهزاً ، ولن يمكنه البحث عنه ، ومصارعة الطيور الأخرى من أجل البقاء ، وقد يقتله خروجه من قفصه .

– فلنترك له مهمة تقرير مصيره ، حتى لا نكون أشبه بسلطات الاحتلال ، التى تجعل من نفسها وصية على الشعب الذى تحتله ، بحجة أنه غير قادر على اتخاذ قراراته المصيرية .

– سيؤنبنى ضميرى لو أنه مات .

– كلنا سنموت يوماً ، وربما كان هو يفضل الموت فى حرية ، وسط الطبيعة التى خلق من أجلها ، بدلا من العيش دهراً فى قفص من الخشب والسلك .

ساد الصمت بيننا بعض الوقت ، وبدت (فاتن) وكأنها تدرس الأمر فى عقلها ، ثم لم تلبث أن ابتسمت، وقالت فى هدوء ورقة :

- أطلقه إذن .
قلت وأنا أبتسم بدورى :
- لم لا تطلقينه أنت ؟
ضحكت ضحكة رقيقة ، وقالت :
- هل رأيت كم من العسير اتخاذ مثل هذا القرار ؟
ابتسمتُ لمنطقها ، وعدت أدور بعينى فى الحجرة ، ثم أشرت إلى صورة تمثلها فى زىّ ، بدا لى عجيباً ، وسألتها :
- أهذه أنت ؟
خيِّل إلىّ أن ملامحها قد اكتست بالحزن وهى تقول :
- نعم .. هذه أنا منذ عامين .
عدت أسألها :
- وماذا ترتدين فى الصورة ؟
ابتسمت ابتسامة حزينة ، وقالت :
- واحد من أزياء أوبريت ، حصلت فيه على الجائزة الأولى .

تطلعت إليها فى دهشة ، وأنا أقول :
- أوبريت ؟! ماذا تعنين ؟
عادت تبتسم نفس الابتسامة الحزينة، وهى تجيب :
- إنه نوع من الأداء المسرحى ، يعتمد على طبقات صوتية مرتفعة ، وحركات رشيقة .
سألتها فى اهتمام :
- أأنت مطربة ؟
أحنت رأسها فى أسى ، وقالت :
- كنت راقصة باليه .
سألتها فى حيرة :
- كنت ؟!.. وهل اعتزلت ؟
خيِّل إلى أننى ألمح دمعة تترقرق فى عينيها ، وهى تخفض رأسها ، وتجيب :
- نعم .
حاولت أن أبتسم ، وأنا أسألها :
- فى مثل هذه السن الصغيرة ؟!.. كنت أعتقد أنكِ تعتزلن بعد الثلاثين على الأقل .

لم تجب هى عن تساؤلى ، وإنما انتفض جسدى ، عندما صرخت والدتها من خلفى فى جزع :

ـ دكتور (فوزى) .

استدرت إليها فى دهشة .. ولم أفهم سر كل هذا الذعر فى عينيها .. لم أفهمه قط ..

كان وجهها شاحباً ، وجسدها ينتفض، حتى كاد كوب الشاى الذى تحمله يسقط من يدها ، فأسرعت ألتقطه، وأنا أحدق فى وجهها بدهشة وحيرة وتساؤل، ولا ريب أنها فهمت ما تعنيه نظراتى ، فأمسكت يدى، وقالت وهى تنظر فى عينىَّ بنظرات ضارعة :

ـ ما رأيك أن تتناول الشاى فى ردهة المنزل ؟

لم أفهم سر دعوتها هذه ، ولكننى أجبت :

ـ حسناً يا سيدتى .. دعينا نفعل .

تبعتها فى آلية إلى الردهة ، وجلست فى المقعد الذى أشارت إلىَّ به ، وجلست فى لهفة وترقب فى انتظار كلماتها ، ولكننى فوجئت بها تبكى فى صمت ، وهى تنظر إلى عينىَّ مباشرة ، فارتجف قلبى وأنا أسألها :

ـ ماذا بك ياسيدتى ؟ ما الذى يحزنك إلى هذا الحد ؟

ظلت تحدِّق فى وجهى لحظة ، بعينيها الدامعتين ، ثم قالت فى حزن انفطر له قلبى ، وصرخت له خلاياى ألماً ، وانهارت له نفسى لوعة :

ـ هناك أمر ينبغى أن تعلمه ، ما دمت طبيب (فاتن) المعالج يا دكتور (فوزى) .. إن (فاتن) مقعدة .. قعيدة الفراش منذ عامين كاملين .

* * *



٣ - حبيبتى ..

لم أشعر فى حياتى كلها بكل هذا الألم والحزن ، والعذاب ، الذى شعرت به وأنا أسمع هذا التصريح من فم أم (فاتن) ..

أم أرقّ مخلوق فى الوجود ..

لم أستطع أن أصدق ..

هذا العصفور الرقيق الوديع الجميل جريح !!..

هذا الجمال الذى لم أر مثله فى حياتى قعيد فراش المرضى ..

لم أشعر بدموعى وهى تسيل من عينىّ ..

لم أشعر بها حتى قالت والدة (فاتن) :

- لا تبك يا دكتور (فوزى) .. لقد اعتدت أنا الأمر ، واعتادته (فاتن) ، ولن تلبث أن تعتاده أنت أيضاً .

لم أحاول كبت دموعى ..

تركتها تنهمر فى غزارة ، وأنا أغمغم فى لوعة :

- كيف ؟!

جفّفت هى دموعها ، وقالت وهى تتنهد فى حزن :

- (فاتن) هى ابنتى الوحيدة يا دكتور (فوزى) ، أنجبتها بعد سبع سنوات من زواجى ، وكان زوجى ، وهو ابن عمى أيضاً ، إنسان رقيق عطوف ، تزوجنى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، وغمرنى بحبه وحنانه ، حتى أصبحت سعادته هى كل أملى فى الحياة ، وبعد زواجنا بعام كامل ، بدأت العائلة تتساءل عن سر عدم إنجابنا ، وكان هو يواجه تساؤلهم هذا بلا مبالاة ، ويتعمد إحاطتى بمزيد من الحنان والعطف ، ولكننى كنت ألمح رغبته فى الإنجاب ، من خلال حبه لكل أطفال العائلة ، وسعادته الغامرة وهو يداعبهم ، وهداياه التى يغدقها عليهم فى سخاء ، وكنت ألمح دائماً الحزن فى عينيه ، وهو يفعل ذلك .. كنت أعلم أنه يتوق إلى طفل من صلبه ، يمنحه كل هذه القدرة على العطاء والحب .

تنهّدت ، وصمتت لحظة ، ثم عادت تستطرد :

ـ لم أستطع الوقوف مكتوفة اليدين ، أمام حبه الشديد للأطفال ، فطلبت منه عرضى على طبيب متخصص ، وبعد إلحاح شديد منى ، وبعد أن تغلب عليه حبه للأطفال ، ذهبنا معاً إلى الطبيب ، الذى أجرى لكل منا الفحوص اللازمة ، ثم قرّر أن زوجى سليم ، وأننى أحتاج إلى بعض العلاج الطبى ، حتى يمكننا الإنجاب .

لمحت الدموع تعود لتترقرق فى عينيها ، ولكننى لم أحاول مقاطعتها ، فقد كنت شغوفاً لمعرفة القصة ، واستمرت هى تقول :

ـ بكيت يومها طويلا ، ورجوته أن يبحث عن زوجة أخرى ، تمنحه الطفل الذى عجزت أنا عن منحه إياه ، ولكنه رفض فى شهامة ، وأجابنى أن هذا قدره ، وأنه يتقبله صاغراً ، وأنه سينتظر نتائج العلاج .

سالت دمعة حزينة على وجنتها ، وهى تستطرد :

ـ طال العلاج خمس سنوات كاملة ، لم يتوقف

زوجى خلالها عن غمرى بالحنان والحب والعطف ، وأنا أبكى كل ليلة ، بسبب إحساسى بالتقصير تجاهه ، وهو يقاوم حبه للأطفال ، ورغبته فى الإنجاب ، وإلحاح عائلته بالزواج من أخرى .. قاوم كل هذا بشهامة نادرة ، وبرجولة جعلت حبى له يتضاعف كثيراً ، واحترامى له يبلغ الذروة ، وحينما وصلت أنا إلى قمة اليأس ، فوجئت بأننى حامل .

رفت ابتسامة شاحبة على شفتيها ، وشردت ببصرها ، وكأنها تستعيد ذكرى هذه اللحظة ، ثم تابعت :

ـ كاد زوجى يجنّ فرحاً ، حينما أبلغته الأمر ، وانطلق فى فرح غامر يزف البشرى لكل أفراد عائلته ، وكأنه يؤكد لهم خطأ نصائحهم السابقة ، وأحاطنى برعاية فائقة ، فلم يكن يجعلنى أغادر الفراش ، أو أبذل أدنى مجهود ، وهو يتابع فى فرح تطور الحمل ، حتى جاءت لحظة الميلاد .. ميلاد (فاتن) .

ارتجف جسدى وأنا أسمع اسم (فاتن) ، وكأنما

يبعث اسمها فى كل مرة مزيداً من الحرارة فى عروق ، وأصغيت لها وهى تتابع :

ــ كان زوجى يرقص فرحاً ، وهو يضم (فاتن) إلى صدره لأول مرة ، وامتلأت ملامحه بفرحة الدنيا كلها ، وهو يوزع الهبات فى سخاء ، على العاملين بالمستشفى ، احتفالا بمقدمها ، وشعرت أنا بسعادة لا حصر لها ، لأننى منحته أخيراً ما يصبو إليه ، وبدأت (فاتن) تنمو ، وهو يرعاها فى اهتمام وسعادة ، حتى بات هو أكثر من يجيد العناية بها ، ولم أر فى حياتى كلها رجلا أضاءت السعادة حياته كلها ، بقدر ما رأيت زوجى ، عندما نطقت (فاتن) بكلمة (بابا) لأول مرة ، ولا فرحاً غامراً كالذى تملكه عندما خطت خطوتها الأولى .. كان ينتقى لها ثيابها بنفسه ، ويعنى بزينتها ، ويفخر بها وهى تسير إلى جواره ، ويقضى معظم وقت فراغه فى مداعبتها ، وتلقينها كلمات جديدة ، والتصقت به هى بدورها ، وأنا أزداد سعادة لسعادته ، وأفرح لفرحه ، وهو يذهب بها إلى المدرسة لأول مرة ،

ويتابع دروسها فى اهتمام ، ويشرح لها ما يستغلق عليها فهمه ، وأصبحت روحه ، وأصبح روحها .

عادت إلى الصمت مرة أخرى ، وجففت بعضاً من دموعها ، وتنهدت ، وعادت تقول :

ــ وعندما بلغت السابعة ، بدأ يلقنها دروس الموسيقى ، والباليه ، ويسعد برؤيتها وهى تؤدى تدريباتها أمامه ، ويرقب نموها فى لهفة ، واكتسبت هى منه ، ومن الموسيقى والباليه رقة وعذوبة ، جعلاها فراشة جميلة ، وهى تخطو إلى عتبات الأنوثة ، وكان هو دوماً فخوراً بها ، يعاونها على تنمية مواهبها ، والتفوق فى دراستها ، حتى التحقت بمعهد الباليه ، وأظهرت نبوغاً وتفوقاً ، جعلها ترتقى بسرعة ، وتحصل على جائزة كبيرة ، فى أول أوبريت تشترك فيه ، وأقام لها هو حفلا كبيراً بهذه المناسبة و ...

بترت عبارتها فجأة ، وزفرت فى قوة ، ثم لاذت بالصمت ، وغمرت الدموع وجهها ، واحترمت

أنا حزنها وصمتها ، على الرغم من لهفتى لسماع القصة ، إلى أن عادت تواصل قصتها ، قائلة :

ـ بعد هذه الجائزة بأسبوع واحد ، بدأت أعراض المرض تداهم (فاتن) .. بدأ الأمر بصعوبة فى الحركة ، وعدم القدرة على أداء الحركات الصعبة، التى فازت من أجلها بالجائزة ، وأخفت هى الأمر بعض الوقت ، خوفاً من إزعاجنا ، ثم لم تلبث أن أعلنته ، عندما أصبحت تجد صعوبة فى المشى نفسه ، وانهار زوجى .. شحب وجهه ، وتهدل ، وهو يعدو بها من طبيب إلى آخر ، وينفق مدخراته كلها من أجل علاجها ، وأجمع الكل على أن مرضها نوع من الضمور العضلى ، مجهول المنشأ ، وعزاه البعض إلى قرابتى لزوجى ، وإلى عوامل وراثية لم نفهم تفاصيلها ، وزوجى يزداد انهياراً وحيرة وألماً وعذاباً ، و (فاتن) تزداد مرضاً ، حتى باع زوجى أملاكه كلها ، ولم يعد يمتلك شروى نقير ، وأقعدت (فاتن) تماماً .. لم تكن تشكو أو تبكى ، وإن أظل الحزن عينيها بظله .. كانت تتعذب ، وترفض

أن تنقل إلينا عذابها ، ولكن قلب والدها لم يحتمل كل هذا العذاب والألم والحزن ، وذات ليلة انفطر قلبه ، وانتقل فى هدوء إلى جوار ربه .

توقفت عند هذه النقطة ، وبكت..

بكت تلك السيدة العظيمة ذكرى زوجها ..

أنا أيضاً بكيت ..

بكيت بمزيج من الحزن والألم ، وتأنيب الضمير..

تذكرت كيف كنت أتحدث إلى (فاتن) عن العصفور السجين، دون أن أدرى أنها هى أيضاًعصفور جريح ، يرفل فى سجن جسد عاجز عن الحركة ..

تذكرت حديثنا ، وبكيت ..

تذكرت كيف آلمتها ، وأثرت أشجانها بحديثى عن اعتزالها ، وعدم نهوضها من الفراش ..

شعور عميق بالعذاب امتلك مشاعرى ، ورغبة قوية فى إسعاد هذا العصفور الرقيق الجريح ..

لم أعد أدرس نوعية العاطفة ، التى أشعربها نحوها .

أصبحت أومن أننى أحبها ..

وأنها حبيبتى ..

كدت أصرح بذلك لأمها ، لولا أن قالت فى أسى :

– تصوّر أننى استدنت ، لأقيم لزوجى جنازته .

غمغمت فى ألم :

– استدنت ؟!

أسرعت تقول :

– فى البداية فقط ، ثم فوجئت بأصدقاء زوجى الراحل ، يفدون إلى منزلنا بالعشرات ، وكل منهم يعطينى مبلغاً كبيراً من المال ، ويؤكد لى أنه كان قد استدانه من زوجى قبل وفاته ، بل إن بعضهم بالغ ، فقال إنه تأخر فى السداد لظروف طارئة ، وأبدى البعض الآخر اعتذاره عن عدم سداد المبلغ للمرحوم قبل وفاته .. كنت أعلم أنهم يفعلون ويقولون ذلك ، حتى يمكنهم معاونتى ، دون جرح كرامتى وكبريائى ،

ولقد قبلت معاونتهم ، وأنا أتظاهر بتصديقهم ؛ لأننى كنت أحتاج حقًّا للمال .

لاح على شفتيها شبح ابتسامة ، وهى تستطرد :

– كان – رحمه الله – شهماً كريماًعظيماً، وكذلك كان أصدقاؤه .

غمغمت فى شرود :

– الطيور على أشكالها تقع :

أومأت برأسها إيجاباً ، وقالت :

– نعم .. ولقد عاونونى المبلغ الكبير ، الذىمنحونى إياه على شراء ماكينتى خياطة وتريكو، وامتهنت تفصيل الثياب بالأجر، حتى أحصل على تكاليف معيشتنا ، ومصاريف العلاج لـ (فاتن) ، فلم يكن زوجى – رحمه الله – موظفاً ، ولم يترك لنا معاشاً نتقوّت به .

ساد الصمت بيننا تماماً ، لفترة طويلة ، ثم قالت والدة (فاتن) فى حنان :

– لست أدرى لِمَ أخبرتك كل هذا يا دكتور

(فوزى) .. ولكننى شعرت نحوك بارتياح خاص ، وأنا واثقة أن هذا شعور (فاتن) أيضاً .

لم أدر ماذا أقول ، وظللت أحدّق فى وجهها لحظة ، ثم هتفت فى حماس مفاجئ :

— ستشفى (فاتن) يا أماه .. وسأحيا من أجل هذا الأمل وحده .

* * *



٤ — المحاولة ..

قضيت النهار التالى كله ، وأنا أستشير كبار أطباء المستشفى الجامعى — حيث أعمل — عن حالة (فاتن) ، وعن الأمل فى الشفاء ، واحتمالاته ..

لم تكن آراؤهم مشجعة ، ولكن أحدهم لم يجزم باستحالة الشفاء ، فتطوُّر الطب ووسائل العلاج لا يتوقف ، وكل يوم يظهر جديد ، ويتحطم مرض آخر أمام إصرار البشر وإرادتهم ..

كنت أحتاج أولاً إلى إرادة (فاتن) ، ورغبتها فى الشفاء ، وإلى قدر كبير من المال ، والجهد ، والعرق .. وسأمنحها أنا كل هذا ..

عرضت الأمر على والدتها فى المساء ، فتأملت ملامحى فى قلق ، وقالت :

— هل تعتقد أنه هناك أمل يا دكتور (فوزى) ؟

أجبتها فى حماس :

— قلبى يمتلئ به يا أماه ، ولكننا نحتاج إلى فترة من

العلاج الطبيعى ، فقد رقدت (فاتن) طويلا فى فراش المرض ، وأخشى أن تكون عضلات ساقيها قدضمرت ، أو تكون مفاصل قدميها وركبتيها قد تيبست و ...

قاطعتنى فى أمل :

– كلاً .. إننى أجرى لها تدليكاً يومياً ، منذ لازمتُ الفراش ، فقد نبهنى طبيبها المعالج إلى ذلك .

هتفتُ فى سعادة :

– هذا عظيم .. سيوفر هذا وقتاً كثيراً ، وسيضمن نتائج أفضل .

شملها الحماس ، وقالت فى لهفة :

– هل تعتقد ذلك ؟

أجبتها فى إخلاص :

– بكل ثقة .

لم تكن نفسى حقاً تمتلئ بكل هذه الثقة التى أردت منحها إياها ، ولكننى كنت أعرف أن أولى خطوات العلاج هى الأمل .. الأمل للجميع ..

قابلت (فاتن) وأنا أبتسم هذه المرة ، وهى أيضاً استقبلتنى بابتسامتها الرقيقة البشوش ، وهى تقول :

– لماذا تأخرت يا دكتور (فوزى) ؟.. إننى أنتظرك منذ الصباح .

أثلجت عبارتها صدرى ، وبعثت فى نفسى سعادة جمة ، فهتفت وأنا أجلس على المقعد المجاور لفراشها :

– كيف حال عصفورى الصغير ؟

تضرّج وجهها الجميل الرقيق بحمرة الخجل ، وهى تقول :

– لقد افتقدتك .

لم أصدق أذنىّ ..

هى تفتقدنى !!..

ذلك العصفور الرقيق يشعر بالحاجة إلىّ !!..

كدت أضمها إلى صدرى ، وأهتف منادياً إياها بلقب (حبيبتى) ، لولا أن تذكرت المهمة التى أتيت من أجلها ، فهمست فى حنان :

– هل تقبلين اعتذارى عن حوار أمس ؟..
لم أكن أعلم ..
أومأت برأسها موافقة ، وهى تبتسم أرقّ ابتسامة رأيتها فى حياتى ، وتقول فى صوت كشدو البلابل :
– إننى أغفر لك كل شىء .
يا لسعادتى ! !
لقد ربطت تلك العاطفة بين قلبينا فى آن واحد ..
أصبحنا عصفورين يضمهما أمل واحد ..
وجدت نفسى أميل نحوها فجأة ، وأسألها فى حرارة :
– هل تريدين الشفاء يا (فاتن) ؟
خفضت عينيها ، وهى تبتسم ابتسامة مريرة ، وتقول :
– لا أريد التعلق بأمل واهٍ .
– ولكن ينبغى أن نحاول .
– لقد اعتدت عجزى ، وأخشى أن أتعلق بالأمل ، ثم ينهار ، فأعود مرة ثانية إلى نقطة البداية .

– لا حياة مع اليأس .
– ليس يأساً ، ولكنه اعتراف بالواقع .
– يمكننا أن نغير الواقع بإصرارنا وإرادتنا .
– ربما .. ولكننا نصنع واقعاً جديداً .
– وإذا وعدتك بالشفاء ؟
تطلعت بعينيها الساحرتين فى عينىّ ، وسألتنى فى حيرة وتردّد :
– هل أنت جادّ ؟
لم أشعر إلا وأنا أتناول كفها الرقيق فى راحتى ، وأقول فى حماس :
– أنا طبيب يا (فاتن) ، ولا أنطق إلا بما أومن به .
شعرت بالأمل وهو يتسلل إلى صوتها ، وهى تقول :
– هل سأعود لأمشى على قدمىّ من جديد ؟
– أجل .
– وسيمكننى أن أتنزه بين الحدائق ، وأسير على شاطئ البحر ؟
– سنسير معاً .

ـ وأجرى ؟

ـ وستسبقين بطل العالم فى العدو .

ـ وأرقص الباليه ؟

أسعدنى ذلك الشعور الجميل بالأمل ، الذى ملأ نفسها ، فقلت فى حب :

ـ هذا يتوقف على إرادتك ومعاونتك يا (فاتن)، ولكننى أعدك أن أكون أول من يصفق لك ، وأنت تؤدين رقصتك الأولى على المسرح .

قبضت براحتها على كفى ، وهتفت فى حماس :

ـ أنا رهن إشارتك .

وبدأ العلاج ..

كانت (فاتن) تبدى إرادة فولاذية ، ورغبة عارمة فى الشفاء ، ولكن حالة ساقيها كانت أكبر مما أعتقد ..

ومضى شهر كامل، دون أن تتحسن حالة (فاتن) خطوة واحدة ..

وبدأ الأمل يزايلها ، ولم تعد تستجيب للعلاج بالحماس نفسه ..

وخلال هذا الشهر انتهت فترة الامتياز بالنسبة لى ، وحصلت على ترخيص مزاولة المهنـة ، ورشحنى تقديرى الممتاز للحصول على وظيفة نائب بأحـد أقسام المستشفى الجامعى ، وبلا تردّد اخترت قسم المخ والأعصاب ..

قرّرت أن أهب حياتى كلها لدراسة حالة (فاتن)، وعلاجها ..

وذات يوم ، وأنا أصحبها فوق مقعد متحرك إلى قسم العلاج الطبيعى ، هتفت فى ضجر :

ـ لقد مللت هذه الرياضة الإجبارية .

قلت فى حنان :

ـ لا تفقدى الأمل يا (فاتن) .

صاحت فى حنق :

ـ أى أمل هذا ؟

ثم تسللت الدموع من عينيها ، وهى تقول فى قهر :

– إننى لا أتقدم خطوة واحدة ، على الرغم من كل ما أبذله من جهد .

لم أستطع أن أجد جواباً ، وتمزق قلبى مع أحزانها وبدون أن أدرى ، وجدت نفسى أهتف بصوت مرتفع :

– ستشفين يا (فاتن) .

سمعت فجأة صوتاً هادئاً من خلفى ، يقول :

– لست أشك فى هذا .

التفت أنا و (فاتن) إلى مصدر الصوت فى دهشة، ورأيت صاحبه ..

كان نائباً فى قسم العلاج الطبيعى ، يكبرنى بعام واحد ، ولكنه يختلف عنى فى كل شىء ..

هو طويل القامة ، وسيم الملامح ، له شعر أسود غزير ناعم ، ووجه مستطيل متناسق ، انتظم فوقه حاجباه الغليظان ، وأنفه المستقيم ، وعيناه العسليتان .

كان يبدو هادئاً واثقاً ، وهو ينطق عبارته هذه ، حتى أن (فاتن) لم تنطق بكلمة واحدة ، وهى تتأمله ، فى حين انحنى هو حتى اقترب وجهه من وجهها ، ونظر

فى عينيها مباشرة ، وهو يقول فى صوت قوى النبرات :

– كيف تتصورين أن حالتك لم تتقدم ؟.. نحن الذين نقرر هذا لا أنت ، ولو سألتنى رأياً طبياً خالصاً ، لقلت إننى أتفاءل بحالتك جداً .

امتلأ وجهها بالدموع ، وهى تغمغم :

– هل تؤمن بذلك حقاً يا دكتور (شريف) ؟

اعتدل وهو يقول فى حزم :

– كل الإيمان ، واليوم بالذات ستتحرك عضلاتك أول حركة .

لم تحر (فاتن) جواباً ، وكذلك أنا ، والتقط (شريف) مقبضى الكرسى المتحرك ، وقاد (فاتن) فى هدوء إلى حجرة العلاج الطبيعى ..

استسلمت له (فاتن) تماماً ، وهو ينقلها إلى أحد الأجهزة الحديثة ، ثم سمعته يقول فى صرامة :

– ادفعى هذه العجلة بقدميك .

قالت (فاتن) فى ألم :

– لا أستطيع .

عاد يكرر فى صرامة أشد :

– ادفعى العجلة .

عادت تهتف :

– لا أستطيع .

قال فى صرامة باردة كالثلج :

– حاولى .

شعرت بألم وحزن شديدين ، وأنا ألمح كل هـذا العذاب فى ملامحها ، وهى تحاول دفع العجلة ، حتى أننى كدت أهتف طالباً من (شريف) أن يجنبها مشقة المحاولة ، ولكن ملامحه ظلت صارمة ، وكأن هـذا المشهد المؤلم لا يحرّك وتراً واحداً من أوتار قلبه ..

وفجأة خيل إلىّ أننى أحلم ، أو أن عينىّ تخدعانى ..

لقد رأيت (فاتن) تدفع العجلة فى بطء ..

رأيت ساقيها تتحركان لأول مرة ..

رأيت فرحة هائلة تغمر ملامحها ، التى اكتست بالأمل والظفر ..

سمعتها تهتف فى سعادة جمة :

– لقد فعلتها .. لقد فعلتها .

تبدّلت ملامح (شريف) فى تلك اللحظة ..

اختفت الصرامة من ملامحه فجأة ، وحل محلها حنان عجيب ، فضحه صوته وهو يقول :

– ألم أقل لك ؟

بدا لى أنها لم تسمعه ، فقد كانت تنظر إلى العجلة فى سعادة شديدة ، وهى تهتف بصوت ظافر ، رقص له قلبي فى قوة :

– لقد فعلتها .. خطوت خطوتى الأولى .

* * *



٥ ـ خطوات فى الهواء ..

لا يمكننى أن أصف ذلك الفرح ، الذى ملأ قلوبنا جميعاً فى تلك الليلة ..

أم (فاتن) ظلت تبكى ساعة كاملة ، وهى تحتضن ابنتها ، وتقبّلها ..

(فاتن) نفسها بدت وكأنها أسعد مخلوق على سطح الأرض ، وهى تضحك كثيراً ، وتشرد قليلا ، دون أن تفارق الابتسامة شفتيها ..

أما أنا فلن أصف سعادتى ، فقد كانت لا توصف ..

احتفل ثلاثتنا بخطوة (فاتن) الأولى ، حتى منتصف الليل ، وحينما كنت أستأذن والدتها فى الانصراف ، أمسكت هى بكفىّ فى امتنان ، وقالت :

ـ أنت الذى عاونتنى على ذلك .

انحنيت نحوها ، وقلت فى سرور :

ـ إرادتك هى التى فعلت ذلك .

ضحكت فى مرح ، وقالت :

ـ إنها البداية ، وسترى كيف ستتطور الأمور .

نسيت وجود والدتها ، أمام عواطفى الجياشة ، ومسست وجنة (فاتن) بأناملى ، وأنا أقول فى حنان :

ـ أنت تستحقين كل خير يا (فاتن) .

ومنذ ذلك اليوم ، بدأت (فاتن) تحرز نتائج رائعة فى العلاج ..

بعد أسبوع واحد ، بدأت تحرك ساقيها فى الهواء ، وتخطو بهما خطوات وهمية ..

وفى الأسبوع الثانى ، أمكنها أن تستند إلى ذراع (شريف) ، وتدوس الأرض بقدميها ..

وفى الأسبوع الثالث ، بدأت تخطو وهى تتشبث بقائم مثبت على الحائط ، كطفل يتعلم المشى لأول مرة .

وفى الأسبوع الرابع ، سارت (فاتن) ، وهى تستند إلى عكازين ..

كان الوصول إلى هذا المستوى وحده يعد معجزة بالنسبة لحالتها ، ولكنها كانت تطمح فى المزيد ..

قالت لى وأنا أزورهم فى تلك الليلة :

- ما رأيك فى تطوّر حالتى الآن ؟

قلت فى حماس :

- رائعة .

سألتنى فى اهتمام شديد :

- هل سأعود لرقص الباليه ؟

ابتسمت فى حنان ، وأنا أتحسس شعرها ، قائلا :

- بإذن الله يا (فاتن) .

تشبثت بذراعى ، وقالت فى لهفة :

- هل ستبقى إلى جوارى ، حتى أفعل ؟

رَبتُّ على كفها الرقيقة ، وقلت فى إخلاص :

- لن أتركك أبداً يا (فاتن) .. أبداً .

سهرت ليلتى كلها أفكر فى عبارتها هذه ..

ترى أكانت اعترافاً منها بحبها لى ؟..

لقد نطقتها فى إخلاص وصدق حقيقيين ، فهل كانت تحاول دفعى للتفكير ؟..

دفعى إلى نطق الكلمة ، التى تتعثّر دائماً فوق شفتىّ ..

كلمة (أحبك) ..

ظللت طوال الليل أقلب الأمر فى رأسى ، ولم يكد يشرق الصباح ، حتى كنت قد اتخذت قرارى ..

قرّرت السفر إلى بلدتى ، ومفاتحة والدى فى أمر زواجى منها ..

وقد كان ..

جلس والدى يستمع إلى الأمر فى هدوء واهتمام ، حتى انتهيت من حديثى ، فهزّ رأسه فى ضيق ، وحرك سبابته أمام وجهى ، وهو يقول برزانته المعتادة :

- حذار يا (فوزى) .. إن ما تشعر به تجاه هـذه الفتاة ، ليس حبًّا كما قد تتصور ، ولكنه شعور الشفقة أمام عجزها ، وجمالها .

تملكنى الغضب وأنا أقول :

- لست طفلاً لا يجيد تمييز عواطفه يا أبتاه .

أجابنى فى هدوء :

– على عكس ما تظن يا ولدى .. إن الطفل هو أكثر من يجيد تمييز عواطفه ومشاعره ، فهو يلتقطها فى بساطة ، ويعبّر عنها بأسلوب مباشر ، لا مداراة فيه ولا خداع .

قلت فى توتر :

– حسناً .. فلنعد إلى موضوع (فاتن) .

أشعل والدى سيجارته ، ونفث دخانها فى هدوء وصمت ، ثم قال :

– أرى أن تتروّى قليلا يا ولدى .. فربما اختلفت مشاعرك ، بعد أن تشفى (فاتن) هذه تماماً .

قلت بلهجة عصبية :

– لقد أحببتها عاجزة ، ولن تتغيّر مشاعرى بعد شفائها .

هزّ كتفيه ، وهو يقول فى هدوء :

– ربما تبدّلت مشاعرها هى .

هتفت فى حنق :

– إنها تحبّنى .

سألنى بهدوئه ، الذى يثير أعصابى :

– هل صرّحت لك بذلك ؟..

ارتبكت لحظة لسؤاله المباشر هذا ، ثم لم ألبث أن قلت فى عناد :

– إنها لا تحتاج للتصريح المباشر ، فتعاملها معى ، وحديثها ، ونظراتها ، تؤكد أنها تبادلنى الحب .

مطّ شفتيه ، وهو يغمغم :

– حديثها ونظراتها ؟!

ثم مال نحوى ، وأردف فى هدوء :

– سأنصحك نصيحة يا ولدى ، ما دمت تمتهن الطب .. فهناك ما يسمى برابطة الامتنان ، التى تنشأ بين المريض ، والطبيب المعالج له ، خاصة إذا ما شعر المريض بالجهد الذى يبذله الطبيب من أجله ، ولو أن المريض أنثى ، فإن هذه الرابطة تتخذ صورة حب وهمى زائف ، لا يلبث أن يتلاشى ، بعد أن تتماثل المريضة للشفاء .

لوّحت بكفى ، وكأننى أطرد الفكرة، وأنا أقول :

– هراء .. إنه مجرد فلسفة .

تنهّد فى ضيق ، وقال :

– ربما ، ولكننى أنصحك بالتريث .

زفرتُ فى حنق ، وأنا أقول :

– لقد أتيت أطلب منك أن تصحبنى لخطبتها يا والدى .

ابتسم وهو يقول :

– صدقنى لم يحن الوقت بعد يا (فوزى) .

نهضت من مقعدى فى حدة، وأنا أقول فى غضب :

– سأخطبها لنفسى إذن، ما دمت ترفض مصاحبتى .

ظهر الغضب على وجه والدى ، وقال وقد فرّ منه هدوءه :

– تخطبها لنفسك ؟!.. هل نسيت أنك ما زلت تقيم فى شقة أدفع أنا إيجارها ، وأن مرتبك لا يكفى للإنفاق عليك وحدك ، فما بالك بالزواج ؟

عقدت عبارته لسانى ، ونبهتنى لنقطة غابت عنى ، فى خضمّ مشاعرى ..

كيف يمكننى أن أتزوج ، ولم أستطع إعالة نفسى بعد ؟..

كانت هذه العقبة أكبر من كل محاولات أبى ، لإقناعى بنظريته عن (رابطة الامتنان) ..

أطرقت برأسى فى حزن ، على حين تنهّد أبى فى ارتياح ، وهو يظن أنه قد هدم عنادى بمنطقه الجديد ، وعاد يقول فى حنان :

– لا تجعل هذه العقبة تقلقك ، سأعاونك على الزواج ، حينما يحين الوقت .

شعرت بغضب يعربد فى أعماقى ، وقلت فى حنق :

– أنت تحاول فرض سيطرتك الاقتصادية إذن .

تطلع إلىّ والدى فى دهشة ، وغمغم فى ألم :

– سيطرة اقتصادية ؟!.. لماذا تلجأ إلى هذه العبارات والمفاهيم المعقدة يا ولدى ، إن كل ما أسعى إليه هو ....

قاطعته وأنا أنهض فى عصبية :

ـ سأؤجل خطبتى لـ (فاتن) يا أبى .. سأؤجله حتى أصبح قادراً على إعالتها وحدى ، دون معاونة منك.

ثم أسرعت أغادر المنزل ، وقد زاد إصرارى على الزواج من (فاتن) .. من فاتنة عمرى .





٦ ـ الأعباء ..

أضافت هذه العقبة المادية الجديدة عبئاً شديداً على حياتى ، التى أصبحت زاخرة بالعمل ، حتى أننى لم أعد أجد وقتاً كافياً لزيارة (فاتن) ...

قبلت عملاً فى عيادة أحد كبار الإخصائيين ، فى مجال جراحات المخ والأعصاب ، استنزف جزءاً كبيراً من وقتى ، إلى جوار استذكارى لنيل درجة التخصص ، والماجستير ، ومتابعتى تطور حالة (فاتن) ، تحت إشراف الدكتور (شريف) ..

كان وقتى مشحوناً دائماً ، ولكننى احتملت كل هذا من أجلها ..

من أجل عصفورى الرقيق ..

كانت قد تخلت أخيراً عن العكازين ، ونجحت فى السير ببطء ، وبخطوات متعثرة ، وكان هذا تطوراً يستحق الاحتفال ، ولقد أعدّت والدتها كعكة كبيرة بهذه المناسبة ، وأنهيت أنا عملى مبكراً بعض الشىء ،

فى العيادة التى أعمل بها ، ثم أسرعت إلى هناك ، حيث استقبلتنى (فاتن) بابتسامتها الرقيقة التى تمحو من قلبى دائماً كل أثر للتعب ، وقالت وهى تتطلع إلى ملامحى فى حنان :

– يا إلهى !!.. إنك تبدو مرهقاً ، وقد ازددت نحولا عن ذى قبل ، لا ريب أنك تبذل جهداً كبيراً فى العمل .

ابتسمت وأنا أقول فى حنان مماثل :

– لا يقلقنك هذا الأمر .

همست فى عتاب :

– كيف تطلب منى ذلك ؟.. إنك تبذل من أجلى مجهوداً خارقاً منذ عام كامل .

أدهشتنى عبارتها ، فغمغمت فى شرود :

– يا إلهى !!.. هل مضى عام كامل ، منذ أول لقاء لنا ؟

ضحكت فى مرح ، وهى تقول :

– تصوّر .

ثم عادت تردف فى حنان :

– لقد فعلت من أجلى الكثير .

قلت وأنا ألتقط كفها الرقيقة فى راحتى :

– إننى أجد سعادة جمة فى ذلك .

تطلع كل منا فى عينى الآخر لحظة ، ثم أطلقت ضحكة مرحة واضحة الافتعال ، وهى تسحب كفها من راحتى ، وتسألنى فى ارتباك :

– كيف حال دراستك ؟

فهمت أنها تحاول الفرار من الموقف ، فأجبتها فى هدوء :

– سأؤدى امتحان الجزء الأول من الماجستير ، فى إبريل القادم .

عادت تسألنى ، وهى تفرّ بعينيها من عينىّ :

– وهل تستذكر جيداً ؟

ابتسمت ، حينما ذكرنى سؤالها بأسئلة والدى ، وأنا طالب فى المرحلة الثانوية ، وقلت :

— نعم .

كدت أفصح لها عن مكنون قلبى فى هذه اللحظة، لولا أن وصلت والدتها ، وهى تحمل الكعكة المزدانة بالكريمة ، وقالت فى سعادة :

— من يحب أن يتذوّق أول قطعة ؟

هللت (فاتن) فى سعادة كالأطفال ، وهتفت فى مرح :

— سنقتسمها أنا و (شريف) و ...

بترت عبارتها فجأة، بعد أن ارتجف قلبى فى قوة، واستدارت إلىّ فى خجل، ولا ريب أن الألم والدهشة اللذين ارتسما على وجهى قد أربكاها ، فقد تلعثمت وهى تغمغم فى اعتزاز :

— معذرة يا دكتور (فوزى) .. يبدو أن لقائى مع الدكتور (شريف) يومياً ، فى قسم العلاج الطبيعى ، قد جعل اسمه يقفز إلى لسانى و ...

قاطعتها وأنا أقول فى خشونة لم أتعمدها :

— لا عليك .

يبدو أن والدتها لم تلحظ ما لحظته هى ، فقد قالت لها فى عتاب :

— لقد نبهتنى إلى نقطة غابت عن ذهنى يا (فاتن)، أما كان ينبغى أن ندعو الدكتور (شريف) إلى هذا الحفل الصغير ، إنه أيضاً يبذل من أجلك الكثير .

اختلست (فاتن) النظر إلى وجهى ، وكأنها تبحث عن رد فعلى لموقف والدتها ، وغمغمت فى ضيق :

— سأدعوه فى الحفل القادم بإذن الله .

قطعت والدتها الكعكة ، ووزعتها علينا ، وجلست صامتاً ، أتناول قطعتى ، دون أن أشعر بمذاقها ، فى حين أخذت (فاتن) تختلس النظر إلىّ ، من وقت إلى آخر ، وقد شملها الصمت مثلى تماماً ..

لم أكد أنتهى من التهام قطعة الكعك ، حتى تعللت باستذكار دروسى ، وطلبت الانصراف ، وشيعتنى (فاتن) إلى باب شقتها ، وتصافحنا فى هدوء ، دون

أن نتبادل كلمة واحدة ، ثم هبطت إلى شقتى ، وأنا أشعر بحنق شديد ..

كنت أشعر بعبء جديد أضيف إلى كاهلى ..

عبء ذلك الشعور القديم المعروف باسم الغيرة ..

كنت أتساءل : هل من الطبيعى أن تخلط (فاتن) بين اسمى ، واسم (شريف) ؟..

أخذت أستعرض وسامة (شريف) ، ورجولته فى ذهنى ، ولم يلبث هـذا الاستعراض أن ملأ نفسى بمزيد من الغيرة ..

من الطبيعى أن تقع فتاة رائعة مثل (فاتن) ، فى حب شاب متألق كـ (شريف) ..

شعرت بعصبيتى تتزايد ، وأنا أتصورها غارقة فى حبه ..

قضيت الليل كله وأنا أفكر فى هذا الأمر ..

من المؤلم للمحب أن تناديه محبوبته باسم آخر ..

إنه يسعد إذا ما حدث العكس ، ويفرح لأنها تنادى الآخرين باسمه ..

ولكنه يتمزق حينما تناديه هو باسم آخر ..

شعرت لحظة أن أفكارى مراهقة رجعية ، ولكننى لم أستطع كبت شعورى بالحنق والغيرة ..

فى الصباح التالى أوصلتها إلى قسم العلاج الطبيعى ، دون أن نتبادل كلمة واحدة ، ثم ذهبت أنا إلى قسم المخ والأعصاب حيث أعمل ..

ظللت شارداً طوال الوقت ، ولم أستطع التركيز فى عملى ..

كنت أتصورها مع (شريف) فى أوضاع عاطفية تثير غيرتى ..

كنت أتصوره يسبح فى بحر عينيها العميق ..

عذبتنى التصورات ، حتى وجدت نفسى أسرع إلى هناك ..

إلى قسم العلاج الطبيعى ..

اندفعت إلى الداخل ، دون أن أطرق الباب ، ثم تسمرت فى ألم وذهول ..

كان (شريف) يمسك كفها الرقيقة فى حنان ،

وهى تنظر إلى وجهه نظرة تشفّ عن اهتمام وحب ..

أو هكذا خيّل لى ..

لم يكد كلاهما يلمحنى ،حتى توردّ وجهها خجلا ، فى حين ابتسم (شريف) ، وهو يقول فى هدوء، دون أن يترك كفها :

ــ مرحباً يا دكتور (فوزى) .. هل رأيت كيف حققت مريضتك المعجزة ، بتقدمها فى العلاج على هذا النحو ؟..

لم أجبه بكلمة واحـدة .. بل ظللت أتطلع إليهما فى ألم ، حتى جذبتْ (فاتن) كفها من يده ، وسألته فى ارتباك :

ــ كيف ترى حال ساقىّ اليوم ؟

أجابها فى بساطة :

ــ رائعة .. أراهن أنك ستعودين إلى رقص الباليه، بعد عام واحد .

قلت فى خشونة ، مقاطعاً حديثهما :

ــ هل انتهت جلسة العـلاج اليـوم ، أم أنكما ستواصلانها ؟..

تبادلت هى و(شريف) نظرة ، لم يعجبنى فحواها، ثم هزّ هو كتفيه ، وقال فى بساطة :

ــ أعتقد أن هذا يكفى اليوم .

التفتُّ إليها ، وقلت فى صرامة :

ــ هيّا .. سأوصلك إلى المنزل .

لم نتبادل ، أنا وهى ، كلمة واحدة طوال الطريق، داخل سيارة الأجرة ، التى أقلتنا إلى منزلهـا ، وبينما كنت أعاونها على صعود درجات السلم ، فوجئت بهـا تسألنى فى قلق :

ــ ماذا بك ؟

أجبتها فى خشونة :

ــ لا شىء .

عادت تسألنى فى إلحاح :

ــ أنت شديد التوتر منذ الصباح ، أهو أمر يتعلق بدراستك .

أحنقنى أنها لم تفهم سرّ تعاستى ، فصمتّ لحظة ، ثم سألتها ، وأنا أرقب انفعالاتها فى دقة :

ـ ما رأيك أن نتوقف عن جلسات العلاج الطبيعى فى المستشفى ؟

ظهر الجزع على ملامحها ، وهى تهتف :

ـ لماذا ؟

قلت محاولاً التأكد من سبب جزعها :

ـ يمكننى أن أقنع إحدى ممرضات القسم بزيارتك يوميًا فى منزلك ، والقيام بالعلاج المناسب ، بدلاً من انتقالك يوميًا إلى هناك .

ظهرت الحيرة على وجهها ، ثم أجابت بعد فترة من الصمت :

ـ فى المستشفى توجد أجهزة حديثة ، تساعدنى على سرعة الشفاء ، و ....

لم تتم عبارتها ، ولكننى فهمت أنها تعنى وجود (شريف) أيضاً ، فقلت فى عصبية :

ـ حسناً .. فليكن ما تريدين .

دققت باب شقتها ، وعاونتها على الدخول ، ثم هممت بالانصراف ، فأمسكت ذراعى ، وهى تسألنى فى قلق :

ـ ألن تبقى قليلا ؟

قلت فى توتر :

ـ ليس الآن ، فأمامى بعض العمل .

انصرفت قبل أن أسمع منها كلمة أخرى ، وجلست فى شقتى أزفر فى غضب ، وأفكر فى الأمر .

كيف انتزعها منى (شريف) ، بعد كل ما فعلته من أجلها ؟..

كيف يجرؤ ؟..

أخذت أدور فى أرجاء الشقة كالأسد الجريح ، وتملكنى شعور عميق بالألم ، وأنا أبحث عن حل ، للاحتفاظ بحبيبتى ..

وأخيراً اهتدى عقلى إلى حل عجيب ..

سأنتزعها أنا من (شريف) ..
سأنتزعها بالحيلة ..
سأشن حرباً من أجل من أحببت ..
من أجل حبي ..
من أجل (فاتن) ..
وسأنتصر على هذا العبء الجديد .

* * *



٧ ـ المعركة ..

عدت إلى المستشفى ، وأنا أعلم أن (شريف) يقضي (نوبتجيته) هناك ..

عدت وقد اكتملت أركان خطتي ، وأصبحت مستعدًّا للمعركة ..

لم يكد هو يلمحني حتى بادرني بابتسامته ، وهو يقول في مرح :

ـ مرحباً يا دكتور (فوزى) .. هل ستشاركني (نوبتجيتي) ؟.

قلت وأنا أتظاهر بالمرح :

ـ يسعدني ذلك ، ولكنني أتيت لاستشارتك في أمر يقلقني .

ظهر الاهتمام على وجهه ، وهو يقول:

ـ هات ما لديك ، ستجدني طوع إشارتك .

صحبته إلى ركن هادئ ، وجلسنا متجاورين ، ثم سألته أنا في اهتمام :

ـ ما رأيك فى (فاتن) ؟

ابتسم ، وكأنما يسعده ذكر اسمها ، وأجاب فى هدوء :

ـ فتاة رائعة .

عدت أسأله :

ـ هل تظن أنها تصلح زوجة ؟

عقد حاجبيه ، وتأملنى لحظة فى صمت ، ثم غمغم فى هدوء :

ـ بلا شك .

تنهدت فى ارتياح متعمد ، وقلت :

ـ شكراً يا دكتور (شريف) .. لقد عاونتنى كثيراً .

ظهر القلق فى نبراته ، وهو يسألنى فى اهتمام :

ـ لماذا تسأل عن هذا ؟

أجبته فى هدوء ، وأنا أتمعن فى ملامحه :

ـ لقد قررت أن أخطبها .

ظهرت الدهشة على وجهه ، وهتف فى حدة :

ـ تخطبها ؟!

أجبته فى هدوء :

ـ نعم .. وماذا فى ذلك ؟

تردّد لحظة ، ثم عاد يقول :

ـ أليس هذا سابقاً لأوانه ؟

ذكرتنى عبارته بكلمات والدى ، فقلت فى عصبية :

لماذا ؟

عاد يتردّد ثانية ، ثم قال فى اندفاع ، وكأنه عثر على الجواب المناسب :

ـ لم يكتمل شفاؤها بعد ، ثم إنك مقبل على امتحانات الجزء الأول من الماجستير و ....

قاطعته لأحسم الأمر :

ـ لقد فاتحت والدتها ، ووافقت .

تراجع فى مقعده ، وهو يغمغم فى شحوب :

ـ وافقت ؟!..

قلت فى شماتة :

ـ نعم .. وافقت ، وسأفاتح (فاتن) فى الأمر الليلة .

شعرت من ملامحه بذلك الصراع ، الذى ينشب فى أعماقه ، ولا ريب أنه بذل جهداً خارقاً ليصافحنى وهو يبتسم ، قائلا :

ـ تقبّل تهنئاتى .

قلت فى برود :

ـ أشكرك .

كانت هذه آخر كلمة تبادلتها مع (شريف) ، وأسرعت بعدها إلى منزل (فاتن) ، فى محاولة لطرق الحديد وهو ساخن ، بعد أن نجح الجزء الأول من خطتى ..

استقبلتنى (فاتن) ـ كعادتها ـ بابتسامتها الرقيقة العريضة ، ولم أكد أغلق الباب خلفى ، حتى فاجأتها بقولى :

ـ هل تقبلين الزواج منى يا (فاتن) ؟

تخضّب وجهها بحمرة خفيفة ، وحدّقت فى وجهى فى حيرة ، ثم أشاحت بوجهها ، وابتعدت بخطواتها البطيئة إلى حجرة نومها ، وتركتنى أحدق فيها بدهشة..

مضت لحظات ، وأنا أقف كالمذهول ، حتى أقدمت والدتها هاشة باشة ، واستقبلتنى فى سعادة ، وهى تقول :

ـ دكتور (فوزى) .. ستتناول العشاء معنا ، فقد كنت أعده توًّا .

حاولت أن أنطق ، ولكن لسانى تسمر فى حلقى ، وأشرت بيدى إلى حجرة (فاتن) ، فعقدت والدتها حاجبيها ، وسألتنى فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟

غمغمت وأنا أنظر إلى حجرة (فاتن) فى ذهول :

ـ لقد تركتنى ، وانصرفت .

حدّقت الأم فى حجرة ابنتها بدهشة ، ثم أسرعت إليها ، دون أن تدعونى للجلوس ..

شعرت بمزيج من الحنق والألم ، وبجرح غائر فى كرامتى ، حتى أننى فكرت فى مغادرة المنزل دون استئذان ، لولا أن ظهرت أم (فاتن) ، على عتبة حجرة ابنتها ، وهى تبتسم ابتسامة عريضة ، وتقول فى حنان :

– لماذا لم تطلب هذا منى يا ولدى ؟

غمغمت وأنا فى حيرة من أمرها :

– أطلب ماذا ؟

قادتنى من يدى كالطفل الصغير إلى الأريكة ، وقالت فى عطف :

– جرت العادة أن تُطلبُ العروس من ولى أمرها .

ازدردت لعابى فى صعوبة ، وقلت :

– هل تقبلين زواجى من (فاتن) إذن ؟

انحنت تقبّل وجنتى ، تماماً كما تفعل أمى وقالت فى سعادة :

– لن أجد لها من هو أفضل منك يا ولدى .

سألتها وقد بدأت السعادة تتسلل إلى قلبى :

– وماذا عنها ؟

ضحكت وهى تقول :

– إنها موافقة ، فلا يمكنها الرفض .

سألت فى لهفة :

– ماذا تعنين بكلمة لا يمكنها الرفض ؟

ابتسمت وهى تقول :

– إنها ليست مجنونة لترفض شاباً رائعاً مثلك .

قلت فى تشكك :

– لماذا لم تخبرنى بموافقتها إذن ؟

اتسعت ابتسامة أم (فاتن) ، وهى تقول :

– إنه خجل العذارى يا ولدى .

ثم أردفت فى جدّية :

– متى سيأتى والدك لطلبها منى رسمياً ؟

أوقعتنى عبارتها فى حيرة .

إننى أعلم موقف والدى من هذا الزواج ، وسيكون من العسير إقناعه بالحضور ..

بحثت عن مفرّ من هذه النقطة ، ولكن عقلى لم يجد جواباً ، فقلت فى قلق :

– سيحضر بإذن الله يا والدتى .

لم ألتق بـ(فاتن) مرة أخرى ، حتى مغادرتى المنزل ..

تعللت أمها بأن ذلك يعود إلى خجلها ، ولـكننى كنت أعلم أنه يعود إلى وقع المفاجأة عليها ..

كنت على يقين من أنها تحبّ (شريف)، ولكننى كنت أرى أننى أجدر بها منه ..

أنا الذى أعدت إليها الأمل ، والرغبة فى الحياة ..

كنت واثقاً من أن معاشرتها لى ، ستجعلها تنسى وسامة (شريف) ، وتحبنى أنا ..

ولكن بقيت أمامى عقبة إحضار والدى ..

كان علىّ إقناعه بالتقدم لخطبتها مهما كان الثمن..

كان هذا جزءًا من المعركة ..

وسافرت فى اليوم التالى ، لمقابلته فى بلدتى ، ولم أكد أكرر مطلبى حتى صمت ، وظلّ يتأمل

ملامحى طويلا ، وهو يشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، ثم سألنى فى هدوء كعادته :

– هل شفيت الفتاة ؟

أجبته فى عصبية :

– إنها تسير اليوم على قدميها .

مطّ شفتيه فى ضيق لعصبيتى ، وعاد إلى صمته بعض الوقت ، ثم مال نحوى ، وقال :

– اسمع يا (فوزى) .. أقصى ما يتمناه الأب – أى أب – فى حياته ، هو سعادة أبنائه ، وإن كنت أعترض على زواجك ، فما هذا إلا لتوجسى من نتائجه ، أما إذا كنت مصرًّا عليه ، وكانت الفتاة التى تريدها توافقك ، فليس لدىّ مانع قط .

شعرت بجسدى يرتجف ، وأنا أسأله :

– وماذا يعنى هذا ؟

تنهد ، وأجابنى فى هدوء :

– يعنى أننى سأصحبك إلى منزلها ، وسأخطبها لك .

فغرت فى فى دهشة ..

لم أكن أتوقع ذلك النجاح المباشر ..

كنت قد حضرت إلى والدى ، وأنا أجهز نفسى لمشادة كلامية طويلة ، ولكننى فوجئت بنفسى أفوز فى هذه الخطوة دون عناء ..

ومن العجيب أن شعور الظفر لم يراودنى قط ، وعلى العكس .. كنت أشعر أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد ..

معركة الفوز بحب (فاتن) .

* * *



٨ ـ لقاء القلوب ..

التقى والدى بوالدة (فاتن) ..

كان لقاءً رائعاً ، لم أحلم بحدوثه على هذا النحو ..

كان والدى طوال الوقت بشوشاً ، باسم الثغر ، وكان يتحدث مع والدة (فاتن) ، فى مواضيع شتى ، دون أن يتطرق إلى أمر الخطبة ، وكنت أنا أتطلع حولى فى قلق ، بحثاً عن (فاتن) ، ولست أنكر أننى كنت عصبياً ، أنتظر بفروغ الصبر انتقال الحديث إلى طلب الخطبة ..

وبينما كنا نتحدث ، ظهرت (فاتن) على عتبة غرفتها ..

كانت كالبدر المنير فى هذه الليلة ..

كانت ترتدى ثوباً ملائكيًّا أبيض اللون ، مطرزاً بخيوط فضية ، تألقت مع بريق عينيها الساحرتين ، ووجهها الرقيق الصبوح ، وكانت تعقص شعرها الأسود الطويل خلف رأسها ، دون أن تضيف إلى ملامحها لمحة واحدة من المكياج ، وعلى الرغم من ذلك كانت

شفتاها فى لون الورد، وخدودها متورِّدة حانية، وحول عنقها التفّ عقد من الماس الصناعى ، منحه جمال عنقها بريقاً أخاذاً ..

توقف والدى عن الحديث مع أم (فاتن) دفعة واحدة ، وتعلقت عيناه بـ (فاتن) ، ثم اكتسبت ملامحه مسحة من الحنان والإعجاب ، وهو يغمغم :

ــ ما شاء الله .

ثم نهض من مقعده، وأسرع إليها يعاونها على السير ، ولكنها غمغمت فى خجل :

ــ يمكننى أن أسير وحدى يا عمّاه .

تراجع والدى، ووقف يتأملها فى إعجاب ، وهى تخطو بخطواتها البطيئة ، وإن ازداد تعثرها من شدة ارتباكها ، وانتظر والدى حتى استقرت (فاتن) جالسة على المقعد المجاور لى ، ثم قال لوالدتها فى حماس :

ــ أعتقد أنه ينبغى أن نتحدث الآن فى موضوعنا ، ألا وهو خطبة الآنسة (فاتن) لابنى (فوزى) .

لم يستغرق الحديث سوى لحظات ، انطلقت بعدها

وغرودة فرحة ، من بين شفتى والدة (فاتن) ، وامتلأ وجه أبى بابتسامة عريضة ، وانحنى على وجنة (فاتن)، وقبّلها فى حنان وهو يقول :

ــ مبارك يا بنيتى .. ستزدان بك عائلتنا .

ثم صافحنى وهو يبتسم ، قائلا :

ــ لقد أحسنت الاختيار يا ولدى .

التقطت أنا كفّ (فاتن) ، وضغطتها فى راحتى برفق ، ولمحت احمرار وجنتيها فى دهشة حقيقية ..

أهى سعيدة حقًّا ؟..

هل يسعدها أن أتزوجها أنا ، أم أن احمرار وجنتيها يرجع إلى تذكرها (شريف) ، فى هــذه اللحظة من حياتها ؟..

عذّبنى مجرد التفكير فى ذلك ، وشعرت فى داخلى بكراهية شديدة لـ (شريف) ..

كاد ذلك التفكير ينزع منى حلاوة اللحظة، فجاهدت لألقيه جانباً ، وأصغيت بكل حواسى إلى أبى ، وهو يخاطب أم (فاتن) ، قائلا :

– ستتم الخطبة بعد نجاح (فوزى) فى الجزء الأول من الماجستير ، وسيتم الزفاف– بإذن الله– بعد حصوله على التخصص ، أما الآن فسنكتفى بدبلتين و ...

لم أستمع إلى باقى الحوار ..

قفز ذهنى دون وعى منى إلى (شريف) مرة ثانية ..

هل كنت على صواب ، حينما انتزعت (فاتن) منه بهذه الوسيلة ؟ ..

أيمكن أن أحصل على حبها حقًّا ، أم أن قلبها سيظل دوماً له ؟..

يا إلهى !!.. كيف أشعر بكل هذا القدر من الغيرة ، فى اللحظة التى انتصرت فيها ؟..

لماذا تصوّرت الأمر كله معركة ، تحتاج إلى قتال عنيف ؟..

كيف تملك الشيطان مشاعرى ، وتحكم فى تصرفاتى إلى هذا الحد ؟..

اختلست النظر إلى وجه (فاتن) ، وأنا أتساءل : هل يمكنها أن تنسى حبها لـ (شريف) ؟..

يقول علماء النفس : إن الفراق يقوّى الحب ، ويزكى نيرانه ، فهل هذا صحيح ؟..

انتبهت من أفكارى على صوت والدى ، وهو يقول :

– هيّا يا (فوزى).. ضع دبلتك فى إصبع خطيبتك.

تركت لى (فاتن) كفها فى استسلام ، وأنا أدسّ دبلتى فى بنصرها ، ثم فعلت هى المثل معى ، وجلجلت زغرودة أخرى من أم (فاتن) ، وأسرعت تحضر أكواب الشراب ، ولم يكد والدى ينهى كوبه ، حتى استأذن فى الانصراف ، وبينما كنت أوصله إلى الباب همستُ فى امتنان :

– شكراً يا والدى .

ربّت على وجنتى فى حنان ، وقال :

– سعادتك هى كل ما يعنينى يا ولدى ، ثم إن خطيبتك رائعة .

همست وأنا أخفض عينى خجلا ، أمام سماحته :

– كنت أتصوّر أنك ..

قاطعنى وهو يقول مبتسماً :

— الأب لا يغضب على أبنائه أبداً ، ألم تلحظ أننى ظللت أدفع إيجار شقتك ، طوال فترة غضبك ؟

لم أكن قد تنبهت إلى هذه النقطة فى الواقع ، ولكن ذكر والدى لها دفع فى أعماق مشاعر جيَّاشة ، جعلت الدموع تترقرق فى عينى ، وأنا أنظر إليه بامتنان بالغ ..

كيف يبلغ الأبناء حدًّا يجعلهم يتصورون أن آباءهم يقفون منهم موقف العداء ؟..

لقد عرفت فى هذه اللحظة أن الأبوة عاطفة جارفة ، تتضاءل إلى جوارها كل العواطف الأخرى ..

كم تمنيت لحظتها أن يكون لى أبناء ، حتى أمنحهم تلك العاطفة الدافقة ؟..

حتى ولو لم يشعروا بها ..

هذه هى إنسانية البشر ، وجمال العواطف الخالصة ، التى لا تسعى إلى أهداف محددة ..

انصرف والدى ، وعدت أنا إلى حبيبتى (فاتن) ، ولم أكد أعبر ردهة منزلها حتى توقفت ، وعقدت حاجبى فى ضيق ..

كانت تتحدَّث هاتفيًّا إلى شخص ما ، ولست أدرى لِمَ كنت واثقاً من أنه (شريف) ؟..

اقتربت منها بخطوات سريعة ، وسألتها فى حدة :

— مع من تتحدثين ؟

قالت فى بساطة :

— إنه (شريف) ، وهو يهنئنا بالخطبة .

قلت فى عصبية :

— يهنئنا ؟!.. وكيف عرف ؟.. لقد تم ذلك منذ دقائق فقط .

تطلعت إلىَّ فى حيرة ، وقالت :

— كنت قد أخبرته فى الصباح و ...

اختطفت منها السماعة ، وقلت فى توتر :

— كيف حالك يا (شريف) ؟

خيَّل إلىَّ أن تدخلى المفاجئ قد أربكه ، فقد صمت لحظة ، ثم قال :

— أردت أن أهنئك بالخطبة و ...

قاطعته فى برود :

ـ شكراً لك .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال :

ـ أردت أن أكون أول من يفعل .

قلت فى برود :

ـ هذا ظريف .

صمت لحظة أخرى ، ثم قال :

ـ سلامى لـ (فاتن) .. أراكما فى الصباح .

أغلقت الخط دون أن أتبادل معه كلمة زائدة ، ثم التفتُّ إلى (فاتن) ، وسألتها فى عصبية :

ـ أكان من الضرورى أن تسرعى لإخباره .

ارتجفت شفتاها وهى تقول فى حيرة :

ـ ولكنه هو الذى اتصل يا (فوزى) .

صحت فى غضب :

ـ لا تكذبى .. إننى لم أسمع رنين الهاتف .

أحنت رأسها فى ألم ، وقالت :

ـ ربما لم تنتبه إليه .. كنت تتحدث إلى والدك .

هرعت والدتها من المطبخ على صوتى المرتفع ، وسألتنى فى دهشة :

ـ ماذا حدث ؟

قلت فى صوت كالصراخ :

ـ إنها تقول إن (شريف) هو الذى اتصل بها و..

ظهرت الحيرة فى عينى الأم ، وغمغمت :

ـ هذا ما حدث بالفعل يا ولدى ، ولقد أجبته أنا ، ونقلت إليها الهاتف ، وأنت تتحدث مع والدك .

ثم أردفت فى قلق :

ـ هل يصنع هذا فارقاً ؟

شعرت ببرودة كالثلج تسرى فى أطرافى ، وبخجل شديد يعترينى ، فنقلت بصرى إلى (فاتن) ، التى خفضت عينيها لتدارى دموعها ، فغمغمت فى اعتذار :

ـ معذرة .. لم يكن الأمر يستحق كل هذا ، ولكن يبدو أن أعصابى متوترة أو ..

لم أتم عبارتى ، ولم يطالبنى أحد بإتمامها ، ولكن والدة (فاتن) ظلت تنظر إلى وجهى لحظات ، وظلت

(فاتن) مطرقة برأسها ، حتى قالت أمها فى هدوء :

ـ خير ما حدث يا ولدى ..

شعرت بمدى التوتر الذى أضفيته عليهما ، فقلت فى عصبية :

ـ سأنصرف الآن ، فأمامى الكثير من العمل ، قبل أن آوى إلى فراشى .

لم تعترض إحداهما على انصرافى ، ولكننى كنت أشعر بالحنق ..

الحنق على نفسى ، فقد أفسدت ليلة لقاء القلوب .

* * *



٩ ـ العـذاب ..

كان مظهرى فى الصباح التالى يشفّ عن أرَقى الطويل ..

كانت أجفانى متورّمة ، وعيناى محمرتين ، ووجهى شاحب من أثر السهاد ..

لقد قضيت ليلتى كلها أفكر فى مكالمة (شريف) ..

كنت أتساءل : لماذا أخبرته (فاتن) بأمر خطبتنا المتوقعة ؟..

صوّر لى عقلى المريض بالغيرة حواراً طويلا بينهما فى قسم العلاج الطبيعى ، فى الصباح السابق لخطبتنا ..

تصوّرتهما يتبادلان نظرات حيرى ، حزينة ، وتصوّرته يسألها فى ألم :

ـ هل صحيح أنك وافقت على الارتباط بـ(فوزى) ؟

تخيلتها تخفض عينيها فى حزن ، وتقول فى أسى :

ـ كيف يمكننى أن أرفض ؟.. هل نسيت أنه صاحب الفضل فيما وصلت إليه من شفاء ؟

لا ريب أنه هتف فى مرارة :

ــ وأنا يا (فاتن) ؟!.. ألم أكن صاحب الفضل فى خطوتك الأولى ؟

ــ هو الذى بعث فى نفسى الأمل .

ــ وأنا الذى بعثت فى قلبك الحب .

ــ أنت وسيم، يمكنك أن تجد من هى أفضل منى ، أما هو ..

ــ ولكننى أحبك .

ــ هو أيضاً يحبنى .

ــ وأنت هل تحبينه ؟

ــ أنا أحبك أنت يا (شريف) ، وأنت تعلم ذلك.

ــ أنا واثق من أنه يعلم ذلك أيضاً .

ــ لم يعد هذا يهم ، سأصبح ملكاً له فى المساء .

غصّ حلقى بالحنق ، فتوقفت تلك الأفكار التى صنعت كل هذا الحديث الوهمى فى عقلى ، وارتديت ملابسى فى عجل ، ثم صعدت إلى منزل (فاتن) ..

كانت تنتظرنى وهى ترتدى ثيابها ، استعداداً

لذهابنا إلى المستشفى ، ولست أدرى لِمَ أحنقنى جمال ثوبها ، فقلت فى عناد :

ــ لن نذهب إلى المستشفى ، إن كنت تتوقعين ذلك.

حدقت (فاتن) فى وجهى بدهشة ، وغمغمت فى حيرة :

ــ لماذا ؟

قلت فى صرامة :

ــ لأننى أرى أن هذا هو الأفضل .

ظلت عيناها تجوسان بوجهى فى حيرة ، ثم سألتنى :

ــ (فوزى) . . لماذا تفعل ذلك ؟

قلت فى حدة :

ــ أفعل ماذا ؟

بدأ صوتها يكتسب بعض الحدة ، وهى تسألنى :

ــ لماذا تحاول منعى من الشفاء ؟

أدهشتنى عبارتها دهشة بالغة ، حتى أن فكى السفلى تدلت على نحو يوحى بالبلاهة ، ثم لم ألبث أن هتفت فى حنق :

ــ من وضع هذه الفكرة فى رأسك ؟

قالت فى غضب :

– أسلوبك .. إنك ترفض فكرة مواصلتى العلاج ، وتصرّ على بقاء حالتى على ما هى عليه .

أردت أن أنفجر فى وجهها ، قائلا : إن وجود (شريف) هو السبب ، ولكننى لم أشأ إعلان غيرتى على هذا النحو ، فتمالكت أعصابى وأنا أقول :

– لم أقصد قط أن تتوقفى عن العلاج يا (فاتن) ، وإنما قصدت أن نذهب إلى مكان آخر ، حتى لايصيبك الملل .

أسرعت تقول :

– لن يصيبنى الملل هناك قط .

تصاعدت دماء الغضب إلى رأسى ، وقد خيّل إلىّ أننى قد فهمت مغزى عبارتها ، ولكنها أردفت بالسرعة نفسها :

– ما دمت أشعر بالتقدم .

أسقط فى يدى ، ولم أستطع أن أجد جواباً شافياً ، لإقناعها بالتخلى عن المكان الذى يوجد فيه شريف ،

ولم يكن أمامى إلا اصطحابها إلى المستشفى ، وهناك تركتها فى قسم العلاج الطبيعى ، وذهبت إلى عملى ..

ظلت فكرة وجودها مع (شريف) تؤرقنى طوال الوقت ، ولكننى قاومت رغبتى فى الذهاب إلى هناك ، حتى لا يفضحنى أسلوبى ، ولم يكد يحين موعد الانصراف ، حتى أسرعت إلى هناك ، ودفعت الباب دون استئذان ..

كانت تجلس هناك وحدها ، إلى جوار إحدى ممرضات القسم ، ولقد ابتسمت فى وجهى ، وهى تقول :

– مرحباً يا (فوزى) .. تصور أننى قمت اليوم بحركة معقّدة جديدة .

سألتها وأنا أتلفّت حولى :

– هل انصرف (شريف) مبكراً اليوم ؟

أجابتنى الممرضة :

– لم يحضر الدكتور (شريف) اليوم .. لقد تقدم بطلب إجازة عارضة .

سألت الممرضة فى اهتمام :

ـ لماذا ؟

هزّت كتفيها ، وأجابت :

ـ لا أحد يدرى .

ولكننى أنا كنت أدرى ..

لقد عجز عن مواجهة (فاتن) ، بعد أن أصبحت ملكاً لغيره ..

لم يحتمل رؤية دبلتى تزين إصبعها ..

لقد فرّ من مواجهتها ، ومن مواجهتى ..

تملكنى شعور قوى بالظفر إزاء موقفه هـذا ، وانتفخت أوداجى فخراً بانتصارى ، وملأنى الفوز زهواً وخيلاء ، مما جعلنى أبدو شديد الرقة والحنان مع (فاتن) ، التى انفرجت أساريرها ، وظلت طوال الطريق إلى المنزل تشرح لى الخطوة الجديدة ، التى أقدمت عليها ..

كنت أستمع إليها بأذنىّ ، ولكن عقلى كان بعيداً ..

كنت أفكر فى (شريف) ..

لقد فرّ اليوم من لقائها ، ولكن ماذا سيفعل غداً ، أو بعد غد ؟..

هل سيضطر لمواجهتها ، وستضطر هى لمواجهته؟..

ماذا سيفعلان عند اللقاء ؟..

هل سيفجّر اللقاء حبهما من جديد ؟..

هل سيخفق قلباهما مرة أخرى ؟..

شعرت فى هذه اللحظة أن ابتعاد (شريف) يؤكد شهامته ..

لولا ذلك لظلّ إلى جوارها ، مستمتعاً بقربه منها ..

ولكن هل سيبتعد طوال الوقت ؟..

راودتنى فكرة أنه لو كان شهماً حقّاً ، لطلب نقله إلى قسم آخر ..

ومن العجيب أن هذا ما فعله بالضبط ..

فى الصباح التالى أخبرتنا الممرضة أنه نقل إلى قسم العظام ، حيث يوجد قسم صغير لتأهيل شفاء كسور العظام ، وبقدر ما أسعدنى موقفه ، أحنقنى موقف (فاتن) ..

لقد شحب وجهها وهى تسمع الخبر ، وتعثرت الكلمات فى حلقها لحظات ، قبل أن تهتف فى جزع :

ــ ولماذا ينقلونه ؟.. إنه أفضل طبيب هنا .

مطّت الممرضة شفتيها ، وقالت :

ــ إنهم لم يفعلوا .. هو الذى طلب نقله إلى هناك ، ولقد استجابوا لطلبه على الفور ؛ لأنه طبيب ممتاز .

عادت (فاتن) تهتف فى حزن :

ــ إنه طبيب رائع ، سنفتقده كثيراً .

قلت فى حنق :

ــ أنا لن أفتقده .

التفتت إلىّ (فاتن)، والممرضة فى دهشة، فتمالكت نفسى ، وابتسمت وأنا أردف فى هدوء مصطنع :

ــ أعنى أننى أستطيع زيارته فى قسم العظام ، فى أى وقت .

تألقت عينا (فاتن) ، وهى تستمع إلى كلماتى ، ثم هتفت فى جذل :

ــ فكرة رائعة .. هيّا نفاجئه الآن بزيارة .

صحت فى غضب :

ــ كلاً .

سألتنى فى دهشة :

ــ ولماذا ؟

عدت أتمالك أعصابى ، وأقول :

ــ سنؤجل ذلك إلى ما بعد انتهاء جلسة العلاج الطبيعى .

ولكننى لم أفعل ما وعدتها به ..

أى أحمق هذا الذى يذهب بحبيبته إلى آخر يحبها ؟..

أى مجنون هذا الذى يمنح منافسه فرصة للفوز ؟..

لم أصطحبها لزيارته ، ولم تكرّر هى مطلبها ، بل ظلت صامتة طوال طريق العودة ، وفى منزلها جلس كل منا صامتاً ، وشعرت والدتها بتوترنا ، فقالت :

ــ هل من جديد فى علاجك يا (فاتن) ؟

أجابتها (فاتن) فى اقتضاب :

ــ إننى أتقدّم كل يوم يا أماه .

التفتت والدتها إلىّ ، وسألتنى :

ـ ما رأيك يا (فوزى) ؟

أجبتها فى اقتضاب مماثل :

ـ هو ما تقول (فاتن) .

شعرت والدتها بتوتر الأمور بيننا، فلاذت بالصمت هى الأخرى ، مما دفعنى إلى الاستئذان، ومغادرة المنزل إلى منزلى ..

لم أعد أنعم أبداً بالسعادة ..

كنت أعيش فى عذاب دائم ..

دائماً أفكر فى علاقة (فاتن) بـ (شريف) ، ودائماً أنسج بينهما مواقف عاطفية كثيرة فى خيالى ..

كل يوم كنت أصحبها إلى المستشفى ، وأعود بها إلى المنزل ، دون أن نتبادل كلمة واحدة ..

وذات يوم ، ونحن نعود ، فوجئت بها تقول :

ـ (فوزى) .. سأسألك سؤالا ، وأرجو أن تجيبنى عنه فى صراحة .

قلت فى هدوء :

ـ سلى ما بدا لكِ .

صمتت لحظة ، ثم قالت :

ـ أأنت نادم على ارتباطك بى ؟

هتفت فى دهشة :

ـ أنا ؟!

سألتنى فى ضيق :

ـ لماذا تعاملنى بكل هذا الجفاء إذن ؟

بحثت عن جواب لسؤالها ، ولكننى لم أجد أمامى سوى جواب واحد .. (شريف) .. ولم أكن أجرؤ على مصارحتها به ، فلذتُ بالصمت ، وعادت هى تقول :

ـ حتى أمى لاحظت جفاءك فى معاملتى ، وسألتنى عن سببه ، ولكننى لم أجد أمامى سوى أنك نادم على الارتباط بفتاة ...

أطرقت برأسها ، وهى تردف فى حزن :

ـ بفتاة نصف عاجزة .

فجّرت عبارتها مشاعرى كلها ، وأزالت من قلبى كل أثر للغضب والغيرة ..

قبضت على كفها ، وهتفت فى حرارة :

- كيف تقولين هذا ؟.. ألا تدركين أننى أحبك يا (فاتن) ؟

رفعت إلىّ عينيها الدامعتين ، وهتفت فى لهفة :

- أحقًا ما تقول ؟

ربّت على كفها وأنا أغمغم فى حنان :

- ألم تدركى هذا منذ البداية يا حبيبتى ؟

ترقرقت الدموع من عينيها ، وهى تقول :

- أنا أيضاً أحبك يا (فوزى) ، ويؤلمنى أن تعذبنى على هذا النحو .

هتفت فى ألم :

- أعذّبك ؟!.. هذا آخر ما أتمناه يا حبيبتى الرقيقة .. إننى أحيا من أجل سعادتك فحسب .

تألق فى عينيها بريق عاطفى أخاذ ، وضغطت راحتى بكفها الأخرى ، وهى تقول :

- فلنتعاهد على ألا يؤذى أحدنا الآخر ، أو يعذبه ما بقى لنا من عمر .

هتفت فى حماس :

- أعِدك يا حبيبتى .. أعِدك .

ثم أردفت فى عمق :

- لا عذاب بعد اليوم .

* * *

١٠ ـ النجاح ..

بررت بوعدى هذه المرة لـ (فاتن) .. خاصة وأن (شريف) قد اختفى من حياتنا تماماً ، فلم يعد يظهر أبداً فى قسم العلاج الطبيعى ، ولم تعد (فاتن) تشير إليه فى أحاديثها قط ..

انتهى عذابنا حقاً ..

أصبحت لحظاتنا كلها سعادة ..

تقدَّمت (فاتن) تقدماً رائعاً فى العلاج ، حتى أصبحت تسير كإنسان معافى ، وإن بدت تحركاتها بطيئة ، وكأنها تتمشى الهوينى ، وأصبحت أنا أستذكر دروسى فى جدّ وعمق ، حتى نجحت فى امتحان الجزء الأول من الماجستير ، وأصبحت كما قال أحد زملائى مداعباً (نصف إخصائى) ..

وأقمنا حفل الخطبة ..

كان حفلاً رائعاً .. تعرَّفت فيه عائلتى (فاتن)

لأول مرة .. ولقد حازت إعجابهم جميعاً بجمالها ورقتها ولباقتها ..

ومن الطريف أنها لم تدع (شريف) لحفل الخطبة ، ولم أفعل أنا أيضاً بالطبع ..

وسارت حياتنا بعد ذلك على وتيرة واحدة ..

أنا أنهمك فى دروسى ، استعداداً لامتحان الجزء الثانى والأخير ، وهى تواصل جلسات العلاج ، بعد أن أصرَّت على الذهاب والعودة وحدها ، دون معاونة ، وفى فترات فراغنا كنا نلتقى ، ونمضى الوقت فى مرح وسعادة ، وأمها تدعو لنا بمزيد من الفرح ، دون أن يعكر صفو حياتنا شىء ..

ومرَّ عام كامل ..

ليس من العجيب أن أتخطى عاماً كاملاً بعبارة واحدة ، فقد بدا لنا وكأنه لم يستغرق إلا الوقت اللازم لكتابة العبارة ذاتها ..

كنا نسبح فى بحر من السعادة ، ونرفل فى ثوب الهناءة ، حتى لم يعد للوقت أية قيمة لنا ..

ولم تعد (فاتن) تحتاج إلى مواصلة العلاج الطبيعى ..

أصبحت تسير كأية فتاة عادية ، بل وتعدو عدواً خفيفاً فى بعض الأحيان ..

كانت آخر جلساتها فى قسم العلاج الطبيعى ، يوم ظهور نتيجة الماجستير .

كدت أرقص فرحاً حينما عرَفت أننى أول دفعتى من طلاب الدراسات العليا ..

أصبحت إخصائيًا فى علاج أمراض المخ والأعصاب ، ونلت درجة مدرس مساعد بالقسم نفسه ..

كنت أطير فرحاً ، وأنا أهرع إليها ؛ لأزفّ لها البشرى ، فى آخر أيامها فى العلاج ، وكدت أقتحم القسم كعادتى ، لولا أن وصل إلى مسامعى حوار ، انتزع منى كل فرحتى بالنجاح ، وتسمّرت له قبضتى فوق مقبض الباب ..

سمعت صوت (شريف) يقول :

– لقد أردت الاطمئنان عليك دوماً ، لولا أن خشيت من غضب (فوزى) .

سمعت (فاتن) تجيبه قائلة :

– هذا مامنعنى أيضاً من زيارتك .. إنه يغار كثيراً .

غمغم هو :

– أعلم ذلك .

ثم أردف :

– ولكننى لم أستطع مقاومة رغبتى فى تهنئتك بانتهاء العلاج ، حينما علمت ذلك .

أجابته فى مرح :

– شكراً لك .

لم أطق احتمال المزيد ، فدفعت الباب ، ووقفت أحدّق فيهما فى برود ، ولاحظت ارتباك (فاتن) ، واحمرار وجهها ، وتلعثم (شريف) وهو يقول :

– مرحباً يا (فوزى) .. إننى لم أرك منذ عام كامل .. لقد أتيت أهنئك بالنجاح فى ....

لم أستمع إلى باقى عبارته الزائفة ..

إنه لم يدرك أننى قد سمعتهما ، وأننى قد كشفت خداعهما لى ..

لم أعد أحتمل رؤيته ، ولم أرد بعبارة واحـدة ، فاتجه هو إلىّ ، ومد يده لمصافحتى وهو يقول :

– تقبّل تهنئاتى .

قلت فى برود :

– شكراً .

ثم استدرت مغادراً القسم ، دون أن أعنى باصطحاب (فاتن) ، وعدت إلى منزلى محنقاً ..

لحقت هى بى بعد نصف ساعة ، وقالت فى غضب :

– لماذا عاملت الدكتور (شريف) بكل هـذا البرود ؟.. لقد أتى ليهنئك .

حدّقت فى وجهها ، دون أن أحاول إجابة سؤالها .

كنت أبحث فى الواقع عن حل جذرى لعلاقتها بـ (شريف) ..

كان لا بد لى من اتخاذ خطوة عملية ، تقطع علاقته بها نهائيًّا ..

طال صمتى وهى تنتظر جوابى ، ثم قلت فى هدوء :

– ما رأيك أن نتزوج الخميس القادم يا (فاتن) ؟

تطلعت إلىّ فى دهشة ، ثم خفضت عينيها ، وقالت :

– كما تشاء .

قلت فى صرامة :

– سأفاتح والدتك فى الأمر .

ولم تعترض والدتها كثيراً ..

وافقت على الزفاف ، ما دمنا سنقيم إلى جوارها ، فى نفس الشقة المفروشة ، التى ما زال والدى يدفع إيجارها ..

لم أشر مطلقاً إلى رؤيتى لها مع (شريف) ، طوال فترة استعدادنا للزفاف ، ولم تفعل هى أيضاً ..

وفى الخميس الأول من شهر مايو ، تم زفافنا فى حفل كبير ، دعونا إليه أبناء الحى كله ، وبدت فيه (فاتن) كملاك يرفرف بجناحيه ، فى ثوب الزفاف ..

تألق جمالها ، وتألقت رقتها كلها فى ذلك الحفل ..

كانت فتنة للناظرين ، وعصفوراً أنيقاً وسط سماء السعادة ..

وكنت أنا أسبح فى عينيها ..

لم أهتم كثيراً بتفاصيل الحفل ، فقد كنت أفكر فى أننا أخيراً أصبحنا زوجين ..

وأخيراً أصبحنا وحدنا فى منزلى ..

أصبحت (فاتن) ملكى إلى الأبد ..

لو أننا بطلى قصة سينمائية ، لانتهت قصتنا عند ليلة زفافنا ، ولكننا كنا للأسف بشراً ، من لحم ودم ..

لم أكد أخلع عن رأسها طرحة الزفاف البيضاء ، وأسبح وحدى فى بحر عينيها ، حتى بادرتنى قائلة :

— (فوزى) .. ما رأيك أن نؤجل إنجابنا لعامين أو ثلاثة ؟

تلاشى فرحى بزواجنا دفعة واحدة ، وسألتها فى حنق :

— لماذا ؟

تحسست وجهى فى رقة ، وقالت :

— إننى أحاول استعادة قدرتى على ممارسة فن الباليه ، وسيعوقنى الإنجاب فى البداية ؛ لذا فأنا أرجوك أن تؤجله ، حتى أستعيد بعض مهارتى .

شعرت بغضب هائل يعربد فى أعماقى ..

كنت أعلم أنها تخشى الإنجاب من رجل لا تحبه ..

كنت أعلم أن (شريف) ما زال يملأ قلبها ..

ولكننى وافقت ..

وافقت لأننى لم أشأ أن أفرض عليها مثل هذا الأمر بالذات ..

فإنجاب الأطفال يحتاج إلى رغبة حقيقية صادقة ، حتى يمكن للأبوين تحمل متاعب تربيتهم ورعايتهم ..

وافقتها لأننى أنا أيضاً أرفض الأطفال ، من امرأة لم تحبنى بعد ..

ولكن — والحق يقال — كانت (فاتن) زوجة رائعة ..

كانت محبة ، مخلصة ، حنوناً ..

وكنت أنا زوجاً متعباً ..

لقد جشمتها الكثير من العناء ، طوال العامين الأول والثانى من زواجنا ، بشكّى فى استمرار علاقتها بـ (شريف) ..

كنت أحصى خطواتها ، وأختلس السمع إلى مكالماتها الهاتفية ، وأرافقها إلى معهد الباليه ، الذى بدأت فيه دروسها من جديد ، كمبتدئة فى هذا النوع من الفن الإيقاعى ..

وكانت هي تشعر بشكوكى ، وتتعذب لها ، ولكنها لم تعترض أو تشك ..

ولم يمنعها كل هذا العذاب من أن تواصل تقدمها ، وتحسنها فى فن الباليه ..

كان لهذين العامين أثر كبير فى حياتنا ..

تفوّقت أنا فى عملى ، وتضاعف دخلى عشرات المرات ، حتى أمكننا الانتقال إلى شقة جديدة أنيقة ،

تطل على البحر مباشرة ، وتبعد شارعين فقط عن منزلنا القديم ، الذى حوّلته أنا إلى عيادة للعناية بمرضى الأعصاب ..

وأصبحت (فاتن) ترقص الباليه ..

تحققت لها المعجزة ، برعاية الله — سبحانه وتعالى — واستعادت عضلاتها مرونتها ، بعد أربع سنوات من الصمود ، والمواظبة ، والإرادة ..

أصبحت (فاتن) رمزاً لانهيار المرض ، أمام الإرادة البشرية القوية ..

أصبحت شعار معهد الباليه ، الذى كان يفخر بعزيمتها ، وصلابتها ..

تصوّروا .. هذا العصفور الرقيق يوصف بالقوة والصلابة ..

كنت أشعر بفخر شديد ، وأنا أتابع تقدمها ..

كنت أشعر أننى واضع حجر الأساس فى هذه المعجزة ..

ولكن شكّى بها لم يتوقف ..

كنت أحاول التخلى عنه ، ولكننى لم أنجح أبداً ..

كلما سيطرت قليلا على غيرتى وشكوكى ، عادت إلى ذهنى كلماتها مع (شريف) فى قسم العلاج الطبيعى ، فى آخر أيام علاجها ..

كنت أتصور أنى لو أطلقت لها حرية الحركة ، فستلتقى بـ (شريف) ، أو على الأقل سيحاول هو الالتقاء بها ..

ربما كنت مبالغاً عنيفاً فى حياتى معها ، ولكننى كنت أحبها ..

يبدو أنه هناك فارق كبير بين الحب والثقة ، على عكس ما يقول الأدباء ..

فالحب كالموت ، يصيب الإنسان فجأة ، ويتسلل إلى قلبه دون سابق إنذار ، ودون التفرقة بين غنى أو فقير .. صغير أو كبير .. سليم أو مريض ..

أما الثقة فنحن نصنعها ، وننميها بالتعامل ..

قد يعارضنى الكثيرون فى رأيى هذا ..

قد يقولون إننى معقد ، أو متطرف ..

ولكننى أستطيع إثبات نظريتى هذه ..

لماذا يقع بعض الناس إذن فى حب راقصات ، أو بائعات هوى ، على الرغم من استحالة الوثوق فى مثل هذا النوع من النساء ؟..

لماذا يهجر رجل امرأته وأولاده ، من أجل إنسانة خانت زوجها معه ؟..

هناك فارق ولا شك بين الحب والثقة ..

فارق فى اتساع البحر ، وفى ارتفاع السماء ..

أو هكذا رأيى على الأقل ..

وأنا أومن أن هذا الرأى هو سر نجاحى .. نجاحى فى حياتى الزوجية .

* * *



١١ ـ وبدأت المتاعب ..

شارف العام الثالث من زواجنا على الانتهاء ، دون أن تتغير عاداتى فى معاملة (فاتن) ، ودون أن تنجح هى فى انتزاع شكوكى من صدرى..

لم أكن قد رأيت ، أو سمعت شيئاً عن (شريف) طوال هذه الأعوام الثلاثة ، ولكنه كان يعيش فى أعماق ..

فى شكوكى ..

ومنذ شهر واحد ، تنبهت إلى خلو القفص الصغير فى شرفتنا ، من العصفور الأنيق ، الذى أحضرته (فاتن) معها عند زواجنا ، فسألتها فى دهشة :

ـ أين ذهب العصفور ؟.. هل لحق بأنثاه ؟

أشاحت بوجهها عنى ، وهى تقول فى هدوء :

ـ لقد أطلقته .

حدّقت فى وجهها بدهشة ، وصمت كلانا طويلاً ، قبل أن أسألها فى حدة :

ـ أطلقته ؟!.. لماذا ؟

فرّت بعينيها من عينىّ ، وقالت فى هدوء :

ـ لأننى أحبه .

لم أفهم منطقها فى البداية ، فسألتها فى حدة :

ـ كيف أطلقته لأنك تحبينه ؟

استدارت تواجهنى بعينين حزينتين ، وقالت :

ـ لقد أدركت أن الحب يدفعنى لإطلاق سراحه ، حتى ولو كان هذا يؤذينى ، ما دام سيحقق له السعادة .

خيّل إلىّ أن كلامها يحمل مغزى خطيراً ، فقلت فى حنق :

ـ أىّ هراء هذا ؟

أجابتنى فى هدوء :

ـ إنه منطقك أنت .. هل تذكر حديثنا فى حجرتى ، منذ ما يقرب من خمس سنوات ؟.. ربما كان هو يفضل الموت فى حرية ، وسط الطبيعة التى خلق من أجلها ، بدلا من العيش دهراً فى قفص من الخشب والسلك .

ساد الصمت بيننا لحظة ، ثم أردفت فى هدوء :

ـ ولقد أدركت اليوم أن السجن سجن ، ولو كانت قضبانه من ذهب .

قالت عبارتها هذه ، وتركتنى وحدى ، وأغلقت خلفها حجرة نومنا ..

يالها من رسالة تركتها لى ، من خلال كلماتها !!

إنها تذكرنى بالقيود التى أحكمتها حولها ، وتنبهنى إلى تنافى ذلك والحب ..

مزّقت منطق السابق فى لحظة ..

جعلتنى أومن أن الثقة والحب وجهان لعاطفة واحدة ..

إننى أعترف بخطإ منطق السابق ..

لا حب بلا ثقة ..

أدركت أن النماذج التى ذكرتها سابقاً لم تكن حبًّا..

بل نوعاً من الرغبة يغلفه الشيطان بغلاف عاطفى واهٍ ..

يا إلهى !!.. كم كنت قاسياً معها ....

كم كنت وحشاً وسجاناً ..

شعرت فى لحظة بعذابها ، طوال السنوات الأربع الماضية ..

وارتفع صوت ضميرى يصمّ أذنى ، ويخفى صوت دقات قلبى المرتجف..

قررت فى لحظة أن أنزع من حولها الأسوار ..

أن أمنحها الثقة التى تصبو إليها ..

أسرعت إلى حجرة نومنا ، ووجدتها تبكى فى صمت فوق الفراش ، فأمسكت بكتفيها ، وقلت فى حنان :

ـ (فاتن) .. لقد فهمت .

رفعت عينيها الدامعتين إلى وجهى ، وغمغمت فى حزن :

ـ حقًّا .

ضممت جسدها الرقيق إلى صدرى فى حنان ، وهمست فى أذنها بحب :

ـ كنت مخطئاً طـوال الوقت يا حبيبتى ، كان ينبغى أن أمنحك ثقتى منذ البداية .

غمغمت فى أسى :

ـ كنت أنتظر هذا من زواجنا .

هتفت فى حماس :

ـ سيحدث يا (فاتن) .. سيحدث .

لم أصحبها فى اليوم التالى إلى معهد الباليه ..

لم أحاول حتى أن أذهب لاصطحابها فى العودة ..

كان من العسير على نفسى أن أبدل أسلوب معاملتى لها فى لحظة ، ولكننى قاومت ، ونجحت ..

كنت أريد أن أؤكد لها ثقتى اللامحدودةِ فيها ، بعد أن فهمت رسالتها ..

وفى ذلك اليوم عادت إلى المنزل واضحة السعادة ، وقفزت تعانقنى وهى تهتف فى فرح :

ـ أحمـل إليك مفـاجأة مذهـلة ، لن تصـدقها يا (فوزى) .

سألتها فى حنان :

ـ إلىّ بها ، قبل أن تقتلنى اللهفة .

صاحت وهى تصفّق بكفيها فى جذل كالأطفال :

ـ سيقيم لى المعهد حفلا خاصًّا ، وسأقوم فيه بدور البطولة ، فى أوبريت جديد ، أعدّه الموسيقار (محمد عبد الوهاب) خصيصاً من أجلى .

صرخت فى فرح ، وضممتها إلى صدرى ، وأنا أهتف :

ـ هذا رائع يا (فاتن) .. رائع .

كان هذا انتصاراً لسنوات الصمود الخمس الماضية ..

كان تحقيقاً للوعد الذى قطعته على نفسى ـ منذ خمس سنوات ـ بعودتها إلى الباليه ..

وكان انتصاراً لإرادتها ..

لم تسترح هى طوال هذا الشهر ..

كانت تقضى وقتاً أطول فى معهد الباليه للتدرب على دورها ، وكانت تواصل تدريبها فى المنزل ، وأنا أصفق لها إعجاباً ..

كانت سعادتها تفوق الوصف ، وسعادتى كذلك .

كان الموعد يقترب فى سرعة ، والصحف تمتلئ بأخبار راقصة الباليه ، التى عادت إلى فنها ، بعد صراع سبع سنوات مع العجز والمرض ..

كانت مصر كلها تتحدث عن هذه المعجزة ..

وكانت (فاتن) أسعد مخلوق فى العالم أجمع ..

كان كل شىء يسير على ما يرام ، حتى صباح ليلة الافتتاح ..

استيقظت من نومى على رنين جرس الباب ، وقبل أن أنهض من الفراش ، قفزت هى منه ، وصاحت فى جذل :

ـ سأفتح أنا .

تثاءبت فى كسل فى فراشى ، وانتظرت عودتها ، ثم قررت أن ألحق بها ، لنتناول طعام الإفطار معاً ..

خرجت من حجرة نومنا على أطراف أصابعى ، وأنا أنوى مفاجأتها ، ولكن المفاجأة كانت من نصيبى أنا ..

لقد رأيتها منهمكة فى قراءة برقية ، من النوع المخصص للتهانى ، وقد نمت ملامحها عن الاهتمام الشديد ..

راودنى شعور الغيرة مرة أخرى دافقاً قوياً ، وتسلل إلى قلبي انقباض عجيب ..

ممن هذه البرقية ، التى استحوذت على انتباهها إلى هذا الحد ؟..

أهو الشخص نفسه ، الذى سبب لنا العذاب طوال الأعوام الخمسة الماضية ؟..

اقتربت منها فى خفة ، حتى أصبحت على بعد خطوة واحدة منها ، وسألتها :

ـ ممن هذه البرقية يا (فاتن) ؟

ارتجف جسدها ، وحدقت فى وجهى بذعر ، ثم أطلقت ضحكة عصبية قصيرة ، وقالت :

ـ لقد أفزعتنى .

عدت أسألها فى صرامة :

ـ ممن هذه البرقية ؟

ترددت طويلا ، ثم أجابت فى تلعثم :

ـ إنها مجرد برقية تهنئة و ..

اختطفت البرقية من يدها ، قبل أن تتم عبارتها ، وقرأت كلماتها فى غضب ... كانت تقول :

« تهنئاتى بالحصول على دور البطولة ، تمنياتى بنجاح باهر الليلة » .

وفى نهايتها توقيع غلى له الدم فى عروقى .. توقيع يحمل اسم الدكتور (شريف) .

* * *



١٢ ـ الانفجار ..

كان ظهور (شريف) المفاجئ فى حياتنا مرة أخرى ، أقوى مما تحتمله أعصابى ، ففوجئت بنفسى أنفجر صائحاً فى غضب :

ـ أيتها الخائنة .

حدّقت (فاتن) فى وجهى بذهول ، وغمغمت فى ألم :

ـ خائنة ؟!.. ماذا تقول يا (شريف) ؟

صرخت فى جنون :

ـ أتنادينى باسمه أيضاً .

ودون أن أدرى ، هويت على وجهها بصفعة قوية ، ألقت جسدها الضئيل أرضاً ، ورفعت عينيها الذاهلتين الدامعتين ، تحدّق فى وجهى ، وأنا أتابع صراخى ، قائلا :

ـ هل تظنين أننى لم أكن أعى ما تفعلان من خلف ظهرى ؟

سالت الدموع من عينيها ، وهى تغمغم :

- من وراء ظهرك ؟!

صحت وأنا لا أستطيع السيطرة على أعصابى :

- لقد ظننتما أننى لم أعرف ، لمجرد أننى لم أتكلم ..

ولكن لا .. لقد عرفت بعلاقتكما منذ رأيته يضم كفك فى حنان ، فى حجرة العلاج الطبيعى ، وأعلم أن سبب عدم ردك علىّ ، عندما طلبت الزواج منك ، يرجع إلى حبك له ، ولقد نقل نفسه من القسم بعد خطبتنا ، حتى يقاوم حبك ، ولا ريب أنه كان يتحدث إليك ليلة وضعت دبلتى فى يدك ، ليحاول إثناءك عن قبول الخطبة ، وأعلم أنكما كنتما تلتقيان من وراء ظهرى ، حتى أننى سمعتكما يوم نجاحى ، تتحدثان عن خيانتكما ، دون أن تدريان أننى أسمعكما ، ولقد سمعتك بنفسى تقولين له أنك تحبينه ، وأنك قبلت زواجى مرغمة .

اختلطت الحقائق بالخيال فى عقلى ، ولم أعد أدرى ماذا أقول ، وتدفقت العبارات من فمى كالقذائف ، دون أن أعى منها حرفاً واحداً ، وهى تحدّق فى وجهى ذاهلة ، ووجهها مبلل بالدموع ، حتى انتهيت ..

انتهيت من مصارحتى لها بشكوكى وغيرتى ..

انتهيت من لفظ كل ما ضاق به صدرى ، طوال السنوات الخمس ..

ساد الصمت طويلا ، وكلانا يحدق فى وجه الآخر ..

ثم نهضت (فاتن) ..

نهضت فى بطء وهدوء ، واعتدلت تنفض الغبار عن ثوبها ، وكأن شيئاً لم يكن ، ثم حدَجتنى بنظرة عميقة حزينة ، خيِّل إلىّ أنها اخترقت قلبى ومزقته تمزيقاً ..

ولكننى لم أتفوّه بحرف واحد ..

ظل كل منا ينظر فى عينى الآخر طويلا ، ثم تحركت (فاتن) فى هدوء إلى حجرتها ..

تابعتها ببصرى ، وأنا أشعر بألم عنيف ، ثم سألتها فى حدة :

- إلى أين ؟

أجابتنى دون أن تلتفت :

- إلى معهد الباليه ، لا بد لى من أداء بروفتى الأخيرة ، قبل حفل الليلة .

لم أعترض طريقها ، ولم نتبادل كلمة واحدة ، حتى غادرت المنزل ، وتركتنى وحدى ، أعض نواجذ الألم والندم ، وألوم نفسى ألف مرة على ما تفوّهت به ..

مرّت ساعة كاملة ، وأنا واقف فى مكانى .. لم أتحرك خطوة واحدة ، أسأل نفسى : كيف أمكننى إيلامها إلى هذا الحد ؟..

لأول مرة أشعر بكراهية شديدة لنفسى ، وبحنق شديد عليها ..

كنت أستحق العقاب ..

عقاب شديد ، قد ينزع من قلبى بعض الندم الذى أشعر به ..

أسرعت أرتدى ملابسى ، وأنطلق إلى معهد الباليه ، وأنا أنوى الاعتذار لها عما بدر منى ..

وصلت إلى المعهد فى الساعة العاشرة تماماً ، ولم تكد مديرة المعهد تعلم أننى زوج نجمة حفل الليلة ، حتى استقبلتنى فى احترام وتبجيل شديدين ، وطلبت من إحدى العاملات بالمعهد إخبار زوجتى (فاتن) ، أننى

أنتظرها فى حجرتها ، وجلست أنتظر حضورها فى لهفة ..

ولكنها لم تأت ..

عادت العاملة خجلى ، وقالت فى تلعثم إن (فاتن) لا تريد مقابلتى ..

شعرت بخجل شديد ، أمام نظرات مديرة المعهد الدهشة ، ولكننى لم أغضب ..

كنت أعلم أننى أستحق ذلك ، بعد كل ما أهنتها به ، فغمغمت فى استسلام :

ــ لا عليك .. هذا ما أستحقه .

خلعت مديرة المعهد منظارها الطبى ، وتأملتنى لحظة ، ثم سألتنى فى حنان :

ــ هل تشاجرتما ؟

أومأت برأسى إيجاباً ، فابتسمت ابتسامة مشفقة ، وقالت :

ــ لا تجعل رفضها يقلقك ، كل الأزواج يتشاجرون ، ولكن نجمتنا اليوم تحتاج إلى أعصاب هادئة ، حتى يمكنها أداء دورها فى إتقان .

غمغمت فى ألم :

ـ هذا صحيح .

ابتسمت فى عطف ، وقالت :

ـ اسمح لى أن أهنئك بزوجتك يادكتور (فوزى). إنها سيدة رائعة .. نادرات هنّ من ينجحن فى هزيمة مرض خطير كمرضها .

غمغمت :

ـ هذا صحيح .

عادت تردف :

ـ لقد بهرتنا جميعاً بما وصلت إليه ، بعد أن كنا قد تيقنّا من عجزها إلى الأبد .

قلت فى اقتضاب :

ـ نعم .. نعم .

عادت تواصل مديحها ، قائلة :

ـ لقد قرر المعهد تعيينها معيدة فيه ، فهى ممتازة أخلاقيًا و ..

كان مديحها يعذبنى ، ويزيد من إحساسى بالندم،

والخجل، والعار ، حتى أننى لم أعد أحتمل كلمة واحدة زائدة ، فهتفت فجأة :

ـ كفى .

حدّقت المديرة فى وجهى بدهشة ، ولكن يبدو أنها أدركت بسرعة ما أعانيه ، فعادت تقول فى حنان عجيب :

ـ ستشاهد زوجتك الليلة ، أليس كذلك ؟

أومأت برأسى إيجاباً فيما يشبه الاعتذار، فأردفت:

ـ بعد الحفل ، سأذهب معك إلى حجرتها ، وسنصلح كل شىء .

هتفت فى لهفة :

ـ حقًا !!

أومأت برأسها ، وهى تبتسم فى حنان ذكرنى بأمى ، فانحنيت نحوها ، وقلت فى حرارة :

ـ كيف يمكننى أن ..

قاطعتنى بإشارة من يدها ، وقالت :

ـ بعد الحفل يا دكتور (فوزى) .

غادرت المعهد ، وقد أصبحت كلمة الحفل مرادفة في ذهني لكلمة الأمل ..

أقسمت فى نفسى أن أبدل طريقة معاملتى لـ (فاتن) تماماً ، إذا ما عادت إلىّ بعد الحفل ..

أخذت أردّد هذا القسم ، حتى موعد الحفل ، وانتقيت أفضل حلة لدى ، واستخدمت العطر نفسه الذى أهدته هى لى فى عيد زواجنا الماضى ، وقبل ذهابى إلى الحفل انتقيت ، من محل للزهور ، زهرة واحدة حمراء اللون ، وثبّتُّ بها بطاقة تحمل اسمى ، وتحته كتبت :

« مبروك يا حبيبتى – تقبلى تهنئاتى واعتذارى ».

وحملت الزهرة فى غلاف أنيق إلى الحفل ..

حاولت أن أقابلها فى حجرتها قبل بدء العرض ، ولكنها عاودت الرفض ، ولم أشأ تكرار مطلبى ، خشية أن أفسد استعدادها للحفل ، فعدت إلى مقعدى ، وانتظرت بدء الأوبريت ..

وبدأ العرض ..

أطفئت أضواء المسرح ، وانزاح الستار ، وغمرت الأضواء خشبة المسرح ، ثم ظهرت راقصات الباليه ..

كانت حركاتهنّ أنيقة رشيقة ، كسرب من الفراشات يحوم حول زهرة أنيقة ، أو كمجموعة من العصافير تغرّد فى سماء الحب ..

وبعد أن ارتفعت الموسيقى ، وهدأت مرة ثانية ، ظهرت (فاتن) على المسرح ..

عبرت بين حشود الراقصات كعصفور أنيق ، ودارت بينهنّ فى رشاقة رائعة ، ثم بدأت تؤدى رقصتها فى مرونة مذهلة ..

شمل السكون قاعة المسرح لحظات ، ثم انفجر فجأة بالهتاف والتصفيق .. وتصاعدت صيحات المتفرجين ، الذين أذهلهم هذا العرض الرائع ، من فتاة كانوا يتوقعون منها عرضاً متوسطاً على أحسن تقدير ، بعد ما قرءوا عن مرضها النادر ، وكفاحها له على صفحات الصحف ..

ولأول مرة فى تاريخ فن الباليه ، توقف العرض ،

أمام سيل الهتاف والتصفيق ، وانحنت الراقصات لردّ تحية الجمهور ، وتقدمت (فاتن) الصفوف ، ثم انحنت فى رشاقة ، ارتفع بعدها الهتاف ، والتهبت أكفّ الحاضرين بالتصفيق ..

تساقطت دموع الفرح من عينى ، أمام هذا النصر الرائع ، الذى حققته (فاتن) ، قبل حتى أن ينتهى العرض ، والتصقت عيناى بوجهها ..

يا لهول ما رأيت ! !

لم يكن وجه (فاتن) يحمل لمحة واحدة من السعادة.

كان صورة مجسمة للحزن ..

حزن بعثته أنا فى نفسها ..

يا لى من مجرم زنيم ! !

جرحت أجمل عصفور فى الوجود ..

أفسدت فرحة انتظرها عمره كله ..

بكيت هذه المرة بدموع القهر والألم ..

بكيت دون أن يلتفت أحد الحاضرين إلى دموعى ..

كانت أنظارهم كلها تتجه إلى (فاتن) ، التى عادت تواصل عرضها الرائع ..

كانت تؤدى دورها فى مهارة ، واقتدار ، كأعظم راقصة باليه فى العالم .

أنا وحدى كنت أعلم أنها حزينة ..

أنا وحدى كنت أعلم أن رقصها هذا ليس طرباً ، وإنما تشنج طير ذبيح ..

كنت وحدى أعلم أنها تتمزّق ..

تتمزّق بعد أن حققت أملها ..

بعد أن حطمت المستحيل ..

ولكننى قررت أن أحقق على الأقل وعدى لها ..

أن أكون أول من يصفق لها ، عندما تنتهى من رقصتها الأولى ..

واقتربت النهاية ..

كنت أعلم كيف سينتهى الأوبريت ، من مراقبتى للتدريبات التى كانت (فاتن) تجريها فى المنزل ..

وقبل نهاية الأوبريت بلحظات ، قررت أن أبدأ التصفيق ، حتى أكون أول المصفقين ..

رفعت كفى استعداداً لذلك ، ولكن فجأة دوّى فى قاعة المسرح صوت تصفيق ..

تصفيق رجل واحد ..

ولم أكد ألتفت إلى الرجـل ، الذى انتزع منى وعدى لها ، حتى انبعثت الكراهية مرة أخرى فى أعماق ..

لقد كان (شريف) ..

* * *



١٣ – المواجهة ..

أصابنى الجنون مما فعله (شريف) هذه المرة ..

لم يكن انتزاعه مبادرة التصفيق منى ، هو ما أورثنى الجنون ..

ولكنه التوقيت ..

كنت أعلم نهاية الأوبريت ، لأن (فاتن) كانت تتدرب أمامى ، ولكن كيف عرف هو النهاية ؟ ..

صوَّر لى جنون الغيرة أنها كانت تقابله ، وأنه كان يشاهدها تؤدى تدريباتها أمامه ..

عادت الغيرة تصوِّر لى علاقة وهمية بينهما ، وتملكنى الغضب ، حتى أننى لم أصفق لها ..

لم أفعل مطلقاً ، والمشاهدون يلتهبون بتحيتها ، وهى تنحنى لهم فى رشاقة ، دون أن تبتسم ..

أسرعت وسط تصفيق المشاهدين إلى هناك ..

إلى حيث يجلس (شريف) ..

لم يكد يرانى حتى هتف فى مرح :

- (فوزى) ؟!.. كيف حالك يا رجل ؟.. لقد كانت (فاتن) رائعة هذه الليلة .

لم أردّ تحيته ، وإنما قلت فى خشونة :

- أريدك وحدنا .

لمحت الدهشة والحيرة على وجهه ، وهو ينهض من مقعده ، ويقول :

- حسناً يا (فوزى) .. أنا رهن إشارتك .

صحبته إلى ركن خال ، فى بهو المسرح ، ثم التفتُّ إليه فى غضب ، وتأملت وسامته وقوته فى كراهية ، ثم قلت فى حنق :

- أنت حقير .

بدت عبارتى كالقنبلة ، وظهر أثرها فى الذهول الذى ارتسم على ملامحه ، وهو يهتف :

- هل أصابك الجنون ؟

قلت فى غضب :

- أنت تخوننى مع زوجتى أيها الحقير .. أعلم أنك تحبها منذ بدأت جلسات العلاج الطبيعى .. أعلم أنك ...

قاطعنى وهو يقول فى غضب مماثل :

- لقد أصابك الجنون ولا شك .. من قال لك إننى أحب زوجتك ، إننى أحب ابنة عمى منذ سبع سنوات ، ولقد تزوجنا منذ عامين .. انظر .

قال عبارته هذه ، ورفع كفه أمام وجهى ، فرأيت الدبلة الذهبية ، التى تتألق فى بنصره الأيسر ، وتملكنى الذهول لحظة ، ثم عدت أهتف فى عناد :

- أنت كاذب .

أشار إلى صالة العرض فى غضب ، وهو يقول :

- زوجتى هناك فى قاعة المسرح ، يمكنك أن تذهب وتسألها .

أصابتنى الحيرة ، وتزلزلت أفكارى ومشاعرى ، فغمغمت فى شحوب :

- لماذا عارضتنى إذن فى خطبة (فاتن) ؟

قال فى حدة :

- لأننى كنت أراها خطوة غير مناسبة بالنسبة للعلاج ، وكان جزعى لسبب عقلانى وطبى محض .

غمغمت :

– لماذا كنت تمسك يدها فى حجرة العلاج الطبيعى ؟

قال :

– كنت أعاونها على السير ، هذا كل ما فى الأمر .

ازدادت حيرتى وأنا أقول :

– لماذا انتقلت من القسم بعد خطبتنا ؟

هزّ رأسه فى ضجر ، وقال :

– لقد لاحظت من أسلوب حديثك معى ، أنك تغار منى ، وخشيت أن يسبب وجودى بعض المشاكل لكما ، ورأيت أنه من الأفضل لعلاجها ، أن أبتعد عن طريقكما .

غمغمت :

– وحديثك معها .

قال فى حدة :

– إن كنت تقصد حديثنا يوم نجاحك فى الماجستير ، فسأشرح لك معناه .. لقد أدهشنى أن أعلم أن (فاتن)

قد تماثلت الشفاء تماماً ، فأنت تعلم ندرة حدوث ذلك ، وأردت التأكد مما أسمعه ، فذهبت إليها ، وحينما سألتنى عن سر نقلى من القسم ، أخبرتها بصراحة أن غيرتك هى السبب ..

قلت فيما يشبه الانهيار :

– والبرقية .

صاح فى حدة :

– أمر طبيعى أن أرسل برقية تهنئة لمريضة من مرضاى ، تماثلت للشفاء على هذا النحو المذهل .

شعرت أننى أترنح من عجب ما أسمع ، وكدت أنهار تماماً ، لولا أن تذكرت نقطة أعادت دماء الغضب إلى وجهى ، فعدت أصيح :

– والأوبريت .. كيف عرفت نهايته ؟

قال فى عصبية :

– إنه أوبريت شهير ، وليست هذه هى المرة الأولى التى أشاهده فيها ، ولست أدرى ماذا يعنيك فى معرفتى لنهاية الأوبريت .

سالت الدموع من عينى غزيرة ..

لقد عذّبت نفسى وعذبتها خمس سنوات كاملة ، وأنا أعيش فى وهم ، لا أساس له من الصحة ..

وَهْمٌ صنعته بنفسى ، وعشت أتعـذب به ومنه دون مبرر ..

وَهْمٌ مزّق أواصر الحب بينى وبينها ..

يالى من أحمق مجنون !!

لِمَ لمْ أصنع هذه المواجهة منذ خمس سنوات ..

لِمَ لمْ أوفر على نفسى ، وعلى (فاتن) عذاب سنوات طوال ..

(فاتن) .. كيف نسيت موعدى مع مديرة المعهد بشأنها ..

تركت (شريف) فجأة ، دون اعتذار أو تبرير ، وأسرعت إلى حجرة (فاتن) ..

لم أكد أصل إلى هناك حتى ارتجفت ساقاى رعباً ..

كان هناك جمع كبير يحيط بحجرة (فاتن) ، وكان الذعر والحزن يسيطران على وجوههم ..

عدوت إلى هناك ، فارتطمت بأحـدهم ، وسألته فى رعب :

— ماذا حدث ؟..

أجابنى وهو يبكى فى ألم :

— لقد انتحرت البطلة .. انتحرت السيدة (فاتن) .

* * *



وقفت لحظة ذاهلاً كالمجنون ، وأنا أحدّق فى الجماهير التى التفت حول حجرة زوجتى ، ثم أطلقت فجأة صرخة إنكار ، واندفعت نحو حجرتها ، أشقّ طريقى بين الجموع ، وأدفع الناس عن يمين ويسار ، وأنا أطلق صرخات متتالية ، حتى سمعت أحدهم يصيح فى الآخرين :

ـ افسحوا له الطريق .. إنه زوجها ، وهو طبيب.

أفسحوا لى الطريق بالفعل ، واندفعت إلى حجرتها.

كانت ترقد على أرض الحجرة هادئة ، كملاك وديع ، وقد اكتسى وجهها بالسكينة ، والسلام ..

كانت ترقد كعصفور رقيق ، حطمت الرياح جناحيه ، فهوى قتيلا ..

وكانت عيناها مسبلتين ..

عيناها اللتان سحرتانى ببحرهما الأزرق العميق ..

لقد فارقت الحياة ..

انطلقت فجأة صرخة اعتراض فى أعماق ..

انطلقت قوية ، عارمة ، عاصفة ..

ووجدت نفسى أنقضّ على جسدها الضئيل ، وبكل خبرتى فى الطب ، شبكت أصابع كفىّ وأخذت أضغط بهما صدرها فى قوة وانتظام ، وأنا أدفع بعضاً من أنفاسى فى صدرها ..

التفّ الجميع حولى ، يرقبون عملى فى صمت وإشفاق ..

وأنا أتحرك كآلة تمت برمجتها ببرنامج واحد ، ألا وهو إنقاذ حياة (فاتن) ..

تصبب العرق على جبينى ، وبلل حلقى ووجهى ، وتساقطت منه قطرات على وجه (فاتن) ، الساكن المستسلم ، وأنا أواصل محاولتى فى قوة ..

وفجأة خفق صدرها فى قوة ..

بعثت خفقته أملاً قويًّا فى صدرى ، فزدت من سرعة تدليكى لقلبها ، ومنحها أنفاسى التى تقطعت ..

وفى هدوء عجيب ، فتحت (فاتن) عينيها ..

توقفت عن الحركة بغتة ، عندما التقت عيناى ببحر عينيها ..

كانت تتطلع إلى وجهى فى تأمل ، ثم لاحت على شفتيها ابتسامة شاحبة ، وغمغمت فى صوت واهن ، لا يكاد يسمع :

– (فوزى) .

وتوقف قلبها عن النبض مرة ثانية ..

عدت أحاول إنعاش قلبها الصغير فى جنون ، مرة ، ومرة ، ومرات ، ولكن القلب الذى تعذب طويلا ، أبى العودة إلى عذاب الدنيا ، واستكان إلى الأبد ..

ظلت عيناها مفتوحتين ، تتطلعان إلى وجهى ، وإن فقدتا بريق الحياة ..

ضاعت (فاتن) إلى الأبد ..

غادرت كزهرة رقيقة ، بللتها قطرات الندى ، فلم ترتو منها ..

غادرت عالمنا ..

جلست كالمذهول أحدّق فى وجهها الشاحب ، ثم مددت أناملى فى هدوء ، وأغلقت عينيها ..

أغلقت البحر الذى طالما ارتويت من نبع حنانه ودفئه ..

ثم أخرجت من جيبى الزهرة التى أحضرتها من أجلها ..

أخرجتها ، وفضضت غلافها ، ثم وضعتها فى رفق على صدرها ، وجلست أنتظر رجال الشرطة والإسعاف ..

حاولت إقناع رجال الشرطة أننى قاتلها ..

أننى الرجل الذى قتلها فى ليلة انتصارها ..

توسلت إليهم أن يعدمونى ، جزاء ما اقترفت يداى. ولكنهم رفضوا تصديقى ..

شهادة الشهود والأدلة ، قالت عكس ما أدعى .. وبخاصة الخطاب ..

ذلك الخطاب ، الذى تركته لى (فاتن) بعد رحيلها .. تسلمته بعد انتهاء التحقيق ، وقرأته صباح اليوم ..

كانت تقول فيه :

« حبيبى (فوزى) ..

هل تصدّق الآن أننى لم أحب سواك ؟.. لقد

حاولت منذ لقائنا الأول أن أوضح لك ذلك ، ولكنك كنت دائماً تمنعنى من أن أفعل .. لقد أحببتك منذ عدت إلى منزلنا ، تستفسر عن حالتى .. أحببتك حتى وأنت تناقشنى فى أمر عصفورى الحبيس .. لقد أحببتك ولكنك لم تشعر بذلك ، ولم تقدره .. أحببتك لأنك منحتنى الأمل فى الشفاء ، ومنحتنى القوة عليه .. لقد كنت أسعى للشفاء من أجلك ، لا من أجلى أنا .. كنت أريد أن أصبح زوجة مناسبة لك .. لقد سعيت إلى الشفاء لأنك كنت تتمنى ذلك ، ولكنك كنت تفتقد الثقة فى نفسك .. إننى أعترف أن (شريف) وسيم ، أنيق ، جذاب ، ولكنك كنت دائماً فى نظرى أفضل الرجال ، وأكثرهم وسامة ، وأناقة وجاذبية .. لأننى أحبك .. والمرأة يا حبيبي – إن لم تكن تعلم – لا تحب فى الرجل وسامته ، ولا أناقته ، أو جاذبيته ، ولكنها تحب فيه رجولته ، وحنانه ، وعطفه ، ولقد عذبنى كثيراً أنك تصورتنى أحب (شريف) .. لقد لاحظت هذا من نظراتك ، ومن عصبيتك حينما اتصل بهنئنا

بخطبتنا .. لاحظته ولكننى كنت أرفضه ، ولقد حاولت كثيراً أن أنزع الفكرة من رأسك ، ولكننى فى كل مرة كنت أزيد من شعورك بالشك ، دون أن أدرى ، وعندما أحنقتك رغبتى فى زيارة (شريف) فى قسم العظام ، قررت أن أنزعه من حياتى تماماً .. من أجلك .. وربما تذكر أننى لم أنطق حتى باسمه منذ ذلك اليوم ، ولم أحاول حتى دعوته لحفل خطبتنا ، أو لحفل زفافنا .. كنت مستعدة لخسارته ألف مرة ، وغير مستعدة لخسارتك بالمرة .. إننى لم أصدق نفسى يوم طلبتنى للزواج .. كادت الفرحة تقتلنى ، لولا أن فررت من أمامك إلى حجرتى ، وأخذ قلبى ينتفض من شدة سعادتى .. كيف لم تلحظ ذلك ؟.. هل أعمتك الغيرة عن رؤية كل عواطفى نحوك ، أو عن الشعور بها ؟.. ومن المؤسف أنك لم تصرح لى بسبب تعذيبك لنفسك ولمشاعرى مرة واحدة ، حتى يمكننى أن أشرح لك الأمر ، كنت تفرّ دائماً من ذكر السبب ، وكنت أنا أخشى مفاتحتك به ، حتى لا أثير مزيداً من شكوكك ..

ولكنك كنت تضيق الخناق من حولى، وتعذبنى بشكك فىّ .. والمرأة تشعر بألم بالغ، وبجرح عميق فى كرامتها، لو وجدت أن الرجل الذى منحته قلبها، لا يمنحها ثقته .. الحب يا حبيبى هو الثقة، ولا حب بغيرها .. ولقد منحتك أنا كل ثقتى، ولم تمنحنى أنت جزءًا من ثقتك، ولكننى احتملت .. احتملت طويلا حتى كان هذا الصباح .. لقد أدهشتنى برقية (شريف)، وأثارت فى نفسى القلق؛ لأننى كنت أخشى أن تسىء أنت تفسيرها، لهذا حاولت إخفاءها عنك .. كنت لا أرغب فى تعكير صفو اليوم، الذى سأؤدى فيه رقصتى الأولى، احتفالاً بنصرك .. نعم يا حبيبى، لقد كان نصرك أنت، لا نصرى أنا .. فأنت الذى دفعتنى إليه، وأنت الذى انتصرت .. ولكنك لم تحتمل .. انفجرت فى اليوم الذى كنت أنوى تقديمك فيه للجماهير، وإخبارهم أننى أحبك، وأنك سرّ انتصارى .. انفجرت توصمنى بالعار، وتدعى أننى لم أحبك يوماً .. كلاً يا حبيبى .. لقد أحببتك دوماً، أنت الذى لم تحبنى أبداً، وكان

هذا يعذبنى .. هل يوجد فى نفوسنا ما هو أغلى من الحياة ؟.. أنت يا (فوزى) كنت لى أغلى من حياتى كلها؛ لذا فقد قررت أن أهبك حياتى، حتى ينمحى كل أثر من الشك فى قلبك، وحتى تتأكد تماماً من حبى لك .. وداعاً يا أحب إنسان فى الوجود .. وداعاً يا حبيبى ..

«فاتن»

لم أكد أنتهى من قراءة رسالتها، حتى تفجرت الدموع من عينى، وأخذت أدق على صدرى، وأهتف فى ألم :

ــ أنا الذى قتلتك يا (فاتن) .. أنا الذى مزقت جناحيك أيتها العصفور الجريح ..

ظللت أبكى ليوم كامل، وأعيد قراءة الخطاب مرات ومرات، وكأننى أتعمّد تعذيب نفسى، جزاء ما اقترفت يداى ..

لم أعد أعمل .. أهملت عيادتى، وعملى فى المستشفى .. أهملت مرضاى وأهلى ..

لم يعد هناك معنى لكل ما أفعله ..

لم تعد هناك سعادة فيما أقدم عليه ..

لم يعد لى الحق فى الحياة ..

إننى أرى شبح (فاتن) فى كل لحظة ..

أراها تتطلع إلىّ فى إشفاق ، وأتخيلها أحياناً تمد كفها الرقيقة ، لتربت على شعرى فى حنان ، أو تمسح وجهى فى عطف ..

أكاد أجنّ من عذاب نفسى ..

ولا مفر من العذاب إلا بالعقاب ..

القاتل فى كل مكان يستحق الإعدام ..

وأنا قاتل ..

صحيح أننى لم أقتل (فاتن) بيدى ، ولكننى قتلتها بغيرتى ..

أنا أستحق الإعدام ..

إن لم يقدموا هم على إعدامى ، فسأفعل ذلك بنفسى ..

سأنتحر ..

سأنتحر حتى أفرّ من شبح (فاتن) ، ومن خيالها الذى يطاردنى فى كل لحظة ..

لا مفرّ لى إلا بالموت .. الموت وحده ..

* * *

انتهى الدكتور (حلمى) ، رئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية ، من قراءة الأوراق ، التى كتبها الدكتور (فوزى) ، ثم هزّ رأسه فى حيرة ، وقال :

- هذه أعجب حالة رأيتها فى حياتى .. إنه انقسام شخصية عجيب .

سأله الدكتور (شريف) فى اهتمام :

- هل هناك أمل فى شفائه يا سيدى ؟

هزّ الدكتور (حلمى) رأسه فى حيرة ، وقال :

- ربما .. ولكننى لا أستطيع الجزم بذلك ..

ثم أردف فى دهشة :

- من العجيب أنه يذكر كل شىء فى دقة مذهلة ، حتى حديثكما معاً فى بهو المسرح ، وبعدها تختل الأمور كلها فى ذهنه .

غمغم الدكتور (شريف) فى أسف :

- ربما كان عقله الباطن يحاول التكفير عن ذنوبه فى حق (فاتن) .

أومأ الدكتور (حلمى) برأسه موافقاً ، وقال :
ـ هذا صحيح .
ثم التفت إلى فتاة رقيقة ، تجلس ساكنة فى ركن الحجرة ، وقد اكتست ملامحها بحزن عميق ، وأردف :
ـ أليس كذلك يا سيدة (فاتن) ؟
رفعت إليه (فاتن) عينيها فى بطء وحزن ، وقالت :
ـ لست أفهم الكثير فى علم الأمراض النفسية يا سيدى ، ولكن تخيله محاولة انتحارى ، وذلك الخطاب أمران يثيران حيرتى .
هزّ الدكتور (حلمى) رأسه فى بطء ، وقال :
ـ بعد حديثه مع (شريف) ، كشف أن تعذيبه لك لم يكن له ما يبرره ، وتصاعد شعوره بتأنيب الضمير ، فاختل عقله ، وبدأ يبحث عن وسيلة يعذب بها نفسه ، كعقاب له عما فعل بك ، ولما كنت أنت أحب إنسان إليه فى الوجود ، فقد اختلق عقله محاولة انتحارك ، ومحاولته إنقاذك ، وفشله فى ذلك ، ولزيادة تعذيبه لنفسه ، اختلق وهم ذلك الخطاب الذى تركته ،

والذى شرح فيه وجهة نظرك ، دون أن يدرى ، وكأنه يعذب نفسه أكثر ، بتصور أنه السبب المباشر فى مقتلك .
هتفت (فاتن) فى حيرة وألم :
ـ ولكننى حية أرزق .
قال الدكتور (حلمى) :
ـ إنه يرفض الاعتراف بذلك ؛ لأن هذا ينتزع منه شعور العذاب ، الذى يسعى عقله الباطن إليه ، ولقد تصورت فى البداية أن رؤيته لك حية ، سيسبب له ما نسميه بالصدمة الرجعية ، فيسترجع صوابه ، ويعود إليه وعيه ، ولكنه حتى مع رؤيته لك رفض الاقتناع ، وبدأ يتصورك مجرد شبح ، يتبدى أمامه ، ليثير فى قلبه كوامن العذاب والألم .
ثم عاد يهز رأسه فى حيرة ، ويردف :
ـ إنها حقًّا أعجب حالة رأيتها فى حياتى .
غمغم الدكتور (شريف) فى ألم :
ـ يؤسفنى أن كنت السبب فى هذا .
قال الدكتور (حلمى) فى اهتمام :

– لا تحاول إقناع نفسك بذلك ، فلو لم تكن أنت لكان شخصاً آخر ، إن (فوزى) يعترف فى بداية أوراقه بأنه شخص منطو ، ويبدو من وصفه لنفسه أنه يفتقد الثقة فيها كثيراً ، ولقد كان يتصور أن (فاتن) أجمل من أن ترضى به ، وكان هذا يثير فى نفسه القلق منذ البداية ، وكان سيصل إلى هذه الحالة إن آجلا أو عاجلا .

ساد الصمت لحظة ، ثم غمغمت (فاتن) :

– لست أدرى بعد ماهية الجنون ، ولكنه من العجيب أن كل كلمة تصوَّر (فوزى) أننى أرسلتها له فى الخطاب كانت حقيقية .

ابتسم الدكتور (حلمى) ، وقال :

– هذا هو جزء من غموض الجنون يا سيدتى ، وهذا ما دفع البعض إلى القول بوجود شعرة صغيرة ، تفصل ما بين الجنون والعبقرية .

سألته (فاتن) فى ألم :

– هل هناك أمل فى شفائه ؟

هزَّ كتفيه ، وقال :

– الله وحده يعلم ، ولكن الأمل لا ينقطع دوماً ، ما دمنا نحاول ، وما دمت أنت إلى جواره .

تكررت هذه العبارة أكثر من مرة فى ذهن (فاتن) ، وهى تغادر مستشفى الأمراض النفسية والعصبية ، إلى جوار (شريف) ، الذى غمغم وهما يهبطان فى درجات السلم :

– لم أكن أتصوَّر مطلقاً أن يصاب (فوزى) بالجنون .

قالت (فاتن) فى حزن :

– نحن المسئولان عما أصابه يا (شريف) .

قال (شريف) فى ألم :

– ولكن أحدنا لم يخنه مطلقاً يا (فاتن) .. صحيح أن كلاً منا كان يحب الآخر ، ولكنك وجدت أنه يحتاجك بأكثر مما أحتاجك أنا ، واحترمت أنا قرارك ، وضغطت على قلبى لتتزوجيه ، من أجل صداقتى له .. صدقينى إننا لم نخطئ .

قالت فى حزن :

– هل قرأت ما كتبه فى أوراقه ؟.. لقد سمع حديثنا ، وأنا أعترف بحبى لك ، ولكن عقله يتصور الآن أن خياله هو الذى صنع الحديث .

غمغم (شريف) :

– مسكين (فوزى) .

ثم أردف فى اهتمام :

– ماذا ستفعلين الآن ؟

أجابته وهى تشرد ببصرها بعيداً :

– كما فعلت فى السابق يا (شريف) .. إنه الآن أكثر احتياجاً لى منك .

قال فى ألم :

– وحبنا يا (فاتن) .

ابتسمت فى حزن ، وقالت :

– إنك ترتدى فى إصبعك دبلة تحمل اسمى يا (شريف) ، ألم تسأل نفسك ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن (فوزى) طلب مقابلة زوجتك المزعومة ،

ثم كشف أنك تخدعه ، وأنك اختلقت قصة ابنة عمك هذه ؟

تمتم (شريف) :

– أنت تعلمين أننى أحبك يا (فاتن) ، وأننى مستعد لتحمل كل شىء من أجلك .

أطرقت برأسها ، وقالت :

– أنا أيضاً أحبك يا (شريف) ، ولكننى لن أتخلى عن (فوزى) .. لقد كان إلى جوارى فى محنتى ، وسأبقى إلى جواره حتى يشفى .

ثم رفعت وجهها إلى السماء ، وتطلعت إلى السحب بعينيها الواسعتين ، وغمغمت :

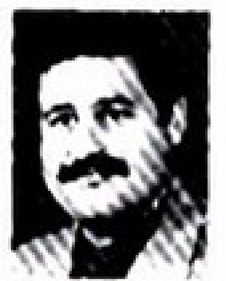
– وداعاً يا (شريف) .. وداعاً .

وسالت من عينيها قطرة دمع حزينة ..
دمع عصفور جريح .

[تمت بحمد الله]



المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

العصفور الجريح

أين الحقيقة ؟.. وأين الخيال ؟..
من المخطئ، ومن المصيب ؟.. هذه
الأسئلة تدور دومًا ، فى رأس
(فاتن) .. فى قلب (فوزى) .. فى عقل
(شريف) .. خضم من المشاعر
والحيرة .. صراع من أجل (فاتن) ..
من أجل عصفور جريح .



الثمن فى مصر
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم